حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
دورية تصدر كل شهرين
www.hiragate.com
السنة الثانية عشرة
ذو الحجة ١٤٣٧هـ / (سبتمبر - أكتوبر) ٢٠١٦م

فسيلة الروح

الإنسان في شِباك الشيطان يتلوّى،
ووليد في أحشاء الدنيا يتراءى،
بأنوار البعث عن يمينه وشماله،
يحمل بشرى الأرحام بأمثاله...

* * *

٢ سلطنة القلوب
فتح الله كولن

٢٢ الأسرة بين الشرع والواقع
د. عبد الحميد الداودي

٤٣ منهجية الرشد السياسي
د. جمال الحوشبي

سلطنة المحبة

في هذا العدد يعالج الأستاذ "فتح الله كولن" في المقال الرئيس إحياء "سلطنة القلوب"، فالحقيقة التي هي منشود كل عاقل لا سبيل إليها إلا بالإيمان، وبدونه يفقد الإنسان البوصلة ويضل الطريق. وتلك الحقيقة لا تنتقل إلى الواقع إلا في ظلال المحبة، ولا تُحدث تأثيرها المرجو منها إلا بالأخلاق، التي هي جوهر الدين وأساسه. وبالأخلاق التي تستمد طاقتها من الرؤية الميتافيزيقية، وتتناغم مع الكون وخالقه بعشق، يستطيع الإنسان أن يحلق نحو الغاية التي خلق من أجلها، إذا تم توجيهه إليها وتحقَّقَ له نوع من التربية الروحية الحقيقية وهو يغُذّ السير في سبيلها.

ولنا في هذا العدد وقفة مع آية النوم في الكائنات، نتأمل بعضًا من حكم الله فيها. وفي عالم الفكر يتابع الأستاذ "أحمد عبادي" الحلقة الرابعة من سلسلة مقالاته المعنونة بـ"علومنا الإسلامية والسياق الكوني المعاصر"، حيث يوازن بين فقه علوم الكون (علوم التسخير) الذي يمكِّن من الفعالية في الحركة، وفقه علوم الوحي (علوم التسخير) الذي يمكن من الرشد في الوجهة. وفي عالم القلب ومشقة الدرب يبين "محمد بابا عمي"، أن من لا يزين إيمانه بالمعرفة لا ينجو بنفسه من تعب الطريق.

وعن "ثابت بن قرة المترجم ورائد علم التكامل والتفاضل" في تاريخنا المشرق الذي عده بعض المستشرقين من أكثر العلماء تألقًا وإنتاجًا عند المسلمين يحدثنا "بركات محمد مراد". وكعادته في الإبداع الأدبي يواصل الأديب الأريب "أديب الدباغ" رسم صورة بقلمه المرهف تنفطر لها القلوب للبكائين والساهرين، فرقًا من خشية بارئهم ﷻ. وفي قضايا العدد التربوية يشرح "عبد الحميد الداودي" الأسس التي تفعِّل دور الأسرة تفعيلاً قويًّا في بناء الفرد والمجتمع، كما يسرد الباحث "رضا إبراهيم محمود" عددًا من الأرقام والإحصاءات تبين علاقة الاضطرابات النفسية بالدوافع الإجرامية.

ونتابع معًا ردود ورقة النبات عن أسئلة عديدة يوجهها لها الإنسان في حوار أدبي شيق ممتع يزيل عن عيوننا بعضًا من أستار الألفة أثناء تعاملنا مع الكائنات حولنا.

وفي رصده للغة الروح الفردية والجماعية عند الأستاذ محمد فتح الله كولن يلقي "ميمون قرمون" مزيدًا من الأضواء على الرؤية الشمولية الكونية العالمية في الإصلاح لدى الأستاذ مقارنة بغيرها من الرؤى. كما يستعرض "إسحاق السعدي" رؤية الثقافة الإسلامية الحضارية للمجتمع المدني ونماذجه الفاعلة، وأسسه التي ارتكز عليها وقيمه التي اعتمدها. وفي مقال متميز لغة وأسلوبًا وفكرًا عنوانه: "منهجية الرشد السياسي" يتناول "جمال الحوشبي" جملة من أصول كبرى، لا ينبغي تجاوزها في خضم المرحلة الجديدة التي يتطلبها فقه المرحلة.

كما يشاطرنا "الكنوني أنس" لواعج عشقه التي تتجلى في تأمل لوحة المطر المرسل من خزائن رحمة الرحمان. ويجول بنا "خلف أحمد محمود أبو زيد" في جسم الإنسان، يرينا موقع الساعة البيولوجية فيه ويعرفنا كيف تعمل آلة الزمن تلك في داخله، ويتيح لنا إحياء سنة النظر في الأنفس الذي حضنا عليه خالقنا. وعن عجائب أمة الطير يحلق بنا "ناصر أحمد سنه" في رحلة جوية أرضية يطلعنا على كيفية طيرانها وآليات هجرتها، وبعض الدروس والعبر من قصص الطير في القرآن الكريم وتاريخ الإسلام.

كما يستنطق "عبد الإله بن مصباح" "الحجر المسبِّح"، ويستحكيه قصته في يد المصطفى ﷺ ورحلة حياته في الكون عامة، ودقائق من مكامن أسراره التي لا يعلمها كثير من الناس.

وأخيرًا تحكي لنا "ليلى محمد السبيعي" موقفًا إنسانيًا نبيلاً لأسرة محسنة، اعتنت بيتيم ضرير حتى بلغت به شأوا عاليًا.

المحتويات

سلطنة القلوب / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
أنس الإيمان / حراء (ألوان وظلال)	٥
لماذا تنام الكائنات الحية؟ وكيف؟ / د. محمد السقا عيد (علوم)	٦
علومنا الإسلامية والسياق الكوني المعاصر (٤) / د. أحمد عبادي (قضايا فكرية)	٨
زينة الإيمان وتعب الطريق / د. محمد باباعمي (أدب)	١٤
ثابت بن قرة المترجم ورائد علم التكامل والتفاضل / أ.د. بركات محمد مراد (تاريخ وحضارة)	١٦
البكّاؤون والساهرون / أديب إبراهيم الدباغ (أدب)	٢٠
الأسرة بين الشرع والواقع / د. عبد الحميد الداودي (تربية)	٢٢
اِحْزِمْ أمرك واخْتَرْ ما تريد...! / حراء (ألوان وظلال)	٢٦
الاضرابات النفسية وعلاقتها بالدوافع الإجرامية / رضا إبراهيم محمود (تربية)	٢٧
حوار مع ورقة / آلبتوغ إمام أغلو (علوم)	٣١
أحبك فاشهد عليَّ / د. حسن الأمراني (شعر)	٣٤
إحياء لغة الروح عند الأستاذ فتح الله كولن / ميمون قرمون (قضايا فكرية)	٣٥
وطننا الفضائي / حراء (ألوان وظلال)	٣٩
الثقافة الإسلامية والمجتمع المدني / د. إسحاق السعدي (قضايا فكرية)	٤٠
منهجية الرّشد السياسي / د. جمال الحوشبي (قضايا فكرية)	٤٣
أعشق / الكنوني أنس (أدب)	٤٨
الآتي القريب / حراء (ألوان وظلال)	٤٩
حديث الحجر المسبِّح / د. عبد الإله بن مصباح (علوم)	٥٠
آلة الزمن في جسم الانسان / خلف أحمد محمود أبو زيد (علوم)	٥٥
عجائب أمة الطير / أ.د. ناصر أحمد سنه (علوم)	٥٨
الضرير / د. ليلى محمد السبيعي (قصة)	٦٢

سلطنة القلوب

منذ ما يقرب من قرنين من الزمان والبشرية في انجراف متواصل ما بين محنة وأخرى، تحوم حول حفر الموت دومًا، وتفجؤها الكوارث وهي تبحث عن الخلاص، وتعتصرها المصائب والويلات. في هذه الفترة من الزمان، كانت شهوة الربح ورغبة الشهرة ونزعة الجاه لبعض الأفراد والطبقات والفئات والشركات الكبرى وعصابات المافيا هي القوة التي تدير المجتمعات في غالبية العالم، بدلاً من الدول والحكومات. بطبيعة الحال، لم يكن مستغربًا في عالم كهذا أن يكون "معيار التقييم" في كل شيء هو كثرة المال وبذخ العيش ومستوى الرفاهية.

أجل، في عالم انقلبت فيه "القيم الحقيقية" رأسًا على عقب، كان من الطبيعي أن تقاس مكانة الناس بما لديهم من أموال، وما يجمعونه من ثروات، وما يمتلكونه من قصور صيفية وأخرى شتائية. وهذا ما وقع فعلاً. وكمصارع وقح، مدّت الثروة والإمكانات المادية ذراعيها عاليًا في الهواء، ووطئت بأقدامها العلم والفضيلة والفكر والشجاعة معلنة بزهو وعجرفة انتصارها. ليس للثروة -في حقيقة الأمر- "قيمة" إلا عندما تلتقي مع العلم والعقل والفضيلة والشجاعة. أما إن بقيت وحدها فمن الصعب أن يكون لها أي معنى، بل قد تتحول أحيانًا إلى أداة وحشية للفتك والتدمير. إنه لمن المؤلم حقًّا أن يُنظَر في عالم اليوم إلى قيم

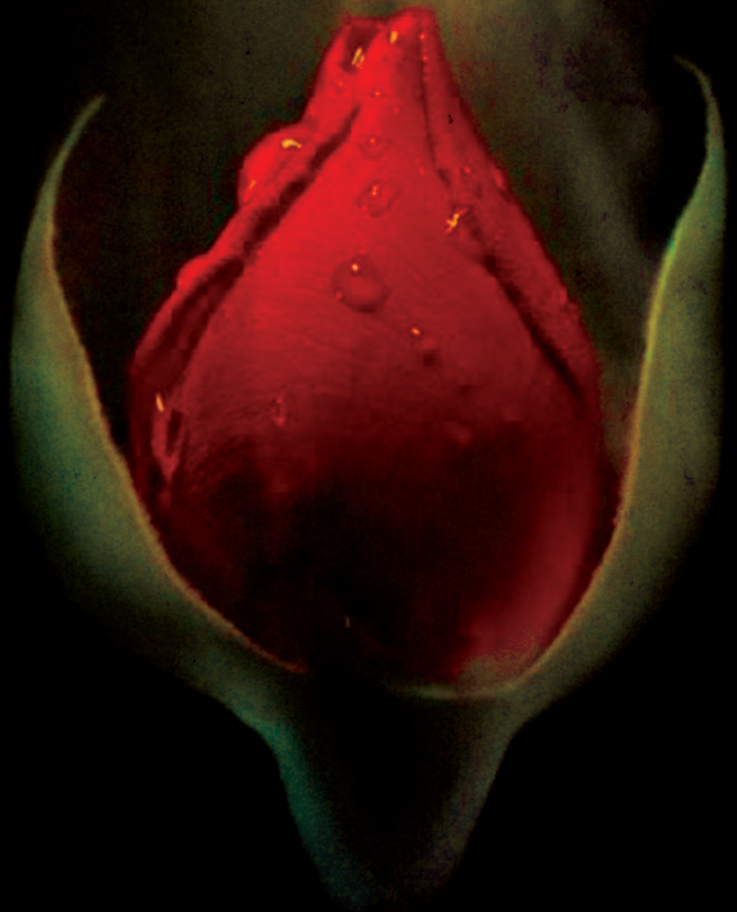

سامية تشكل ديناميات حيوية حقيقية لأي مجتمع مثل قيم المعرفة والفكر والأخلاق والشجاعة باعتبارها نوعًا من الترف والغباء، كونها لا تحقق عائدًا ماديًا أو تجني أرباحًا ملموسة.

إن الأفراد الذين يشكلون مجتمعًا واحدًا، إن كانت مشاريعهم الحياتية تدور في فلك المتطلبات الجسدية والرغبات المادية، وحياتُهم تتقلب في أودية المتعة واللهو، وليس لهم همّ إلا تضخيم الثروات والبحث عن الملذّات.. في مجتمع كهذا لا مفر من أن يسود أفراد لا يحملون أي غاية نبيلة، محتالون، انتهازيون، فقراء حماس، جهلة، قاصرو نظر وعاجزون عن رؤية خطوتين إلى الأمام تحت أقدامهم؛ وبطبيعة الحال سيغيب عن المشهد ذوو الكفاءات الجادة النشطة وأصحاب العزائم الصلبة والمواهب العالية والشخصيات الفذة؛ وستُقصَى الفضيلة وتنحَّى القيم الأخلاقية والجمالية جانبًا، وتبقى التجارب والخبرات بلا أي قيمة. هذا فضلاً عن تهميش الكفاءات العالية والمواهب الراقية النافعة للأمة والبلاد. ولا نبالغ إذا قلنا إن تشوّهًا من هذا القبيل هو السائد في أغلب مناطق العالم.

إن البشرية اليوم -مقارنة بالقرون الماضية- تمتلك ثروات وإمكانات هائلة. لكنها في المقابل وقعت أسيرة رغباتها التي لا تنتهي واحتياجاتها التي لا تنفد، وصارت فريسة لألوان من الترف، وضحية لأصناف من الإدمان بصورة لا مثيل لها في التاريخ، وتلك حقيقة لا مراء فيها. إنها اليوم كلما عاشت من أجل جسمانيتها ورغباتها المادية زاد جنونها لمزيد من التلذذ والاستمتاع؛ فكلما شربت ازدادت عطشًا، وكلما أكلت ازدادت شراهة، وباتت تتفنن في اختراع حيل وأساليب لا تخطر على البال مدفوعة برغبة جامحة في كسب أكثر، وباعت روحها للشيطان مقابل أخس المنافع وأحط المصالح، وابتعدت عن القيم الإنسانية أيما ابتعاد.

أجل، إن إنسان اليوم الذي يُتلف أيامه لاهثًا خلف قيم مادية آنيّة، يستهلك ذخيرة عمره في حقيقة الأمر، ويتنازل عن مشاعره الرفيعة الكامنة في أعماق روحه. ففي عالم إنسان كهذا، يستحيل أن ترى عمقًا إيمانيًا أو ثراء عرفانيًا أو محبة أو عشقًا أو نفحة من نفحات

على إنسان يومنا الذي يواصل رحلته في جحور وأنفاق كهذه أن يسارع بالخروج منها، وأن يعيد اكتشاف "مساره الإنساني الذاتي". وإلا فسوف ينجرف من دوامة إلى أخرى، ويتقلب من متاهة إلى متاهة، ولن يستطع أن يبني "ذاته" أبدًا.

الأذواق الروحانية. فكل عمل يقوم به يقيّمه من زاوية المكاسب المالية أو الرخاء المادي أو المتع الجسدية، ومن ثم يلقي بكافة المنح الأخروية والمواهب اللدنية عُرض الحائط.

إن ما يشغل فكر هذا الإنسان ونشاطه هو كيف يسلب ويختلس؟ ماذا يشتري ويبيع؟ كيف سيلهو ويستمتع وأين؟ وإذا لم تلبّ السبلُ المشروعةُ طموحاته ورغباته تلك، وعجزت عن تحقيق مكاسبه في الإطار المشروع فسيلجأ إلى كل سبيل غير مشروع، وسيستخدم كل ألوان الحيل والمجازفات، بل إذا ضاق سطح الأرض عن إشباع شهواته المروعة، فسوف يتخذ من باطنها سراديب وأنفاقًا كتلك التي تستخدمها القوارض والجرذان.

على إنسان يومنا الذي يواصل رحلته في جحور وأنفاق كهذه أن يسارع بالخروج منها، وأن يعيد اكتشاف "مساره الإنساني الذاتي". وإلا فسوف ينجرف من دوامة إلى أخرى، ويتقلب من متاهة إلى متاهة، ولن يستطع أن يبني "ذاته" أبدًا. فإذا أنقذتَه من الشيوعية فسوف يقذف بنفسه في الفوضوية، وإذا جنّبته الإلحاد فسوف يهوي في فراغ الحلولية، وإذا انتشلته من الداروينية فسوف يتشبث بما بعد الداروينية، وسيبقى هكذا نمطيًا دائمًا وبلا هوية، يجاهد باستماتة ليبقى ذيلاً بدلاً من أن يكون قائدًا.

لهذه الأسباب، فهو يستهلك حياته منذ بضعة قرون في دوامة من الأزمات؛ فإنْ تخلّص من أزمة سياسية أو إدارية سقط في أحضان أزمة أخلاقية، وإن نجح في الخلاص منها تورط في شبكة من الأزمات الاقتصادية، وإن لملم شتاته وحاول الخروج منها ألقى بنفسه في

hiragate.com

إن الأبطـال الذين يتحملون مسـؤولية زرع فسـائل ثقافتنا الذاتيـة ورعايَتها وإنماءها في السـنوات المقبلة ينبغي أن يتجهوا إلى محراب الإيمان أولاً، ثم يسـيروا نحو منبر المحبة، ثم ينطلقوا بعد ذلك لينشروا أنفاس المحبة في كل أصقاع الأرض.

معترك أزمات عسكرية، وهكذا يظل يدور في حلقات مفرغة يستهلك طاقاته ويبدد قدراته بـ"سلبيته" تلك. وليس من سبيل -فيما أحسب- للخلاص من هذه الدوامة القاتلة سوى أن نراجع مواقفنا من جديد حيال بعض الديناميات الدينية والوطنية والتاريخية كالإيمان والمحبة والأخلاق والرؤية الميتافيزيقية والعشق والتربية الروحية.

فـ"الإيمان" معرفة الحقيقة كما هي، أما "المحبة" فنقل تلك المعرفة إلى الحياة. والذين حُرموا الإيمان لا يمكنهم أن يجدوا الحقيقة المطلقة أو يعرفوها. فإذا قال أحد هؤلاء "آمنتُ" فإن ذلك مناقض لعالمه الداخلي، وإذا قال "وجدتُ" فإن ذلك نوع من التضليل. سيئو الحظ أولئك الذين لا يؤمنون، وأجساد بلا روح أولئك الذين لا يحبون. فالإيمان أهم مصدر للفاعلية، والإيمان يعني احتضان الروح للوجود بأكمله واستيعابَها للكائنات كافة، والمحبةُ هي العنصر الأساس للفكر الإنساني الحق، وهي كذلك بُعده الميتافيزيقي. وعليه، فإن الأبطال الذين يتحملون مسؤولية زرع فسائل ثقافتنا الذاتية ورعايَتها وإنماءها في السنوات المقبلة ينبغي أن يتجهوا إلى محراب الإيمان أولاً، ثم يسيروا نحو منبر المحبة، ثم ينطلقوا بعد ذلك لينشروا أنفاس المحبة في كل أصقاع الأرض. وهم إذ يقومون بمهمتهم تلك، يجدر بهم أن يعلموا أن سر تأثيرهم كامن في عمق سلوكهم الأخلاقي وتشرّبهم لقيم الفضيلة السامية.

أما "الأخلاق" فهي جوهر الدين وأساسه، وأهم أعمدة الرسالة الربانية. وإذا كان الالتزام بالأخلاق والفضيلة بطولة -وهو كذلك- ففرسان هذا الميدان وأبطال حلبته هم الأنبياء ومن سار على دربهم بإخلاص. إن أبرز ما يتسم به المسلم الحقيقي أن يكون ذا أخلاق عالية. فالمتأمل بنور العقل وعين الحكمة في القرآن آية آية وفي السنة فصلاً فصلاً لا يجدها كلها إلا أخلاقًا. وقد عبر عن هذه الحقيقة العظمى أوجز تعبير وأوفاه القامةُ السامقة والخُلُق المجسَّم ﷺ حينما قال: "الدين حسن الخلق".

إننا كأمة أبناءُ منظومة أخلاقية رفيعة. ولا يمكن لأي تصور أو "فنتازيا" فكرية أن تزعزع أخلاقنا، بل لا ينبغي أن يحدث ذلك أصلاً؛ فحُلمنا أن نتجاوز الدُّنَى بالأخلاق، ونحلّق بها إلى الآباد. إننا نؤمن بأننا سنحقق ذلك بطاقتنا الميتافيزقية التي تعد بعدًا آخر من منن الله وألطافه علينا.

و"الرؤية الميتافيزيقية" هو ما ينفتح فيها العقل على الوجود بأكمله، ويسعى إلى فهمه واستيعابه بما ظهر أمام الستار وما توارى خلفه. فإذا ما ضلّ العقلُ أو الروحُ هذه الرؤيةَ الاستيعابية للوجود تمزق كل شيء وتناثر، وغدا شخوصًا بلا روح. ومن ثم فنفي الفكر الميتافيزيقي أو إنكار وجوده إفلاس للعقل. إذ الحقيقة أن كل "تكوّن" حضاري كبير نما وترعرع في أحضان الفكر الميتافيزيقي. بدأ كذلك في شبه القارة الهندية وباقي المناطق الشرقية؛ وهو كذلك في عالمنا الذي نشأ وازدهر في ضوء الرؤية الكونية للقرآن التي ولّدت على أثرها حضارات زاهرة متعاقبة. وبما أن الرؤية الميتافيزيقية تتضمن انفتاح الروح على الوجود، واستيعابَها للطبيعة، واحتضانَها للكائنات كافة، فهل يدري الذين يقيمون حربًا بين الميتافيزيقا والعلوم أنهم يحدثون تصادمًا بين الشلال والمنبع الذي انبثق منه؟

الميتافيزيقا هي استشعار حقيقة الوجود بـ"عشق". وبالتالي فالعشق هو الشعور بالكائنات كلها، والشعور بما يدور في الوجود من حراك منتظم متسلسل متناغم، والشعور بالحب إزاء كل ذلك جميعًا. نعم العشاق الحقيقيون لا يسعون إلى مال أو جاه، ولا يرغبون في شهرة أو مقام. إنهم يستنشقون "بردًا وسلامًا" وسط عواصف العشق التي تحرق قلوبهم وتذروها رمادًا، ويطالعون سيماء من أحبوه في صفحة صور الزوال المتتابعة، ويتفقّدون معشوقهم وسط رماد كيانهم

hiragate.com

المحترق المتناثر، إلى أن ينعموا بوصال المحب بالمحبوب، والطالب بالمطلوب. وبعبارة أهل العشق فهم في سياحة دائبة من وديان "الفناء في الله" إلى ربوع "البقاء بالله" وفي حركية وديناميةٍ لا تنقطع. ولا شك أن بلوغ ذلك الأفق لا يتحقق إلا بـ"تربية روحية" حقيقية.

إن تربية الروح باختصار تعني أن يتوجه الإنسان نحو الغاية التي خلق من أجلها. وبعبارة أخرى أن تتحرر الروح من سيطرة الجسد والمادة، وأن تولّي وجهها نحو جوهرها الأصلي ومنبعها الأساسي، وأن تمضي في سيرها الروحاني نحو تلك الغاية التي خلقت من أجلها. والحقيقة أن هذا الموضوع يحتاج إلى مزيد تفصيل ليس هذا مكانه، ومن ثم نكتفي بهذا القدر الموجز.

إن الأجيال البائسة التي فقدت مقوماتها الروحية كافة، وابتعدت عن جوهرها، باتت -ضحيةَ عقولها وتفكيرها- في شقاء وضياع. ومن ثم ينبغي أن نغير الزاوية التي تنظر منها هذا الأجيال، والأفقَ الذي تطالع منه الوجود والحوادث، وننفق في ذلك الغالي والنفيس. ونحن على يقين بأننا قادرون على ذلك. قد يستخفّ البعض بالجهود التي نبذلها في هذا الميدان، إلا أننا متشبعون بالأمل. المهم أن نغذي إرادتنا بالعبادة، ونضبطها بمحاسبة النفس. وظيفتنا فقط أن نواصل السير. والله معنا حيثما اتجهنا. ما علينا إلا أن نغمض أعيننا وننثر البذور في ربوع المستقبل الذهبية. أمّا شقُّ تلك البذور طريقَها إلى الحياة، فأمره إلى الله سبحانه.

إننا على يقين تام بأننا إذا استطعنا أن ننجز خدمة واعية ومشاريع شاملة، فإنه ستولد من رحم دنيانا هذه دنيا أخرى تسري فيها نسمات الأمن والسكينة والمحبة، وتستقيم الحياة على جادة السعادة الحقة. كما أننا على يقين بأن أجيال المستقبل ستيمم وجهها شطر محبة عظمى تتجاوز المال والجاه والشهرة والمقام وكافة أصناف الرغبات والشهوات.. تلك هي محبة سلطنة القلوب. ■

(*) نشر هذا المقال في مجلة سيزنتي التركية، العدد: ١٩٩، (أغسطس ١٩٩٥). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

أُنس الإيمان

ما أنت في الكون وحيد،
ولا أنت في التِّيه فريد..!
مالِكُ الكون معك،
يناغيك، ويهدْهدك...
وربُّ الوجود إليك ينظر،
ورحمته عليك تتنـزَّل...

***

علوم

د. محمد السقا عيد*

ليس الغريب من ابتعد عن وطنه وداره أو فارق أحبته وذويه، إنما الغريب من بات غير مفهوم في مجتمعه حالاً ومنهجًا وسلوكًا. فهو الحامل لأحلام سامية وغايات أخروية، وهو المضحّي بملذّاته الشخصية من أجل غيره، والمتألق بهمته العالية وعزيمته الخارقة.

الموازين

لماذا تنام الكائنات الحية؟ وكيف؟

١

النوم يبدو للوهلة الأولى حالة سلبية لدى الإنسان غايتها إعطاء الإنسان فرصة للراحة ليستعيد قوته من أجل صراعه على البقاء خلال اليقظة. إلا أن النوم ليس حالة من الانعدام التام للنشاط فالإنسان تتقلب وتتحرك أذرعه وأرجله فى بعض مراحله، وعندما تضاف الأحلام إلى ذلك يخبر المرء أحداثًا بهيجة أو مفزعة ترتبط أحيانًا بخبراته في حالة اليقظة... كل هذه الأشياء تدلنا على أن النوم عملية إيجابية نشطة. ولنرجع إلى سؤالنا المطروح: لماذا تنام الكائنات الحية؟

الحقيقة أن هناك آراء كثيرة لتفسير أسباب حدوث النوم... من هذه الآراء:

ما يقال من أن كمية الدم التي تصل إلى المخ تقل فيحدث النوم، ويتم ذلك نتيجة لانقباض الأوعية الدموية فتقل تبعًا لذلك كمية الدم المارة بها. ولعل سائلاً يسأل: وما السبب لحدوث هذا الانقباض في الأوعية الدموية؟

المحتمل أن أنسجة المخ تتراكم فيها المواد السامة الناتجة عن النشاط اليومي فيسبب ذلك انقباض الأوعية الدموية فيحدث النوم نتيجة لذلك، وتظل الحال هكذا حتى يتخلص الدم من هذه السموم فتتسع الأوعية الدموية، وتزداد كمية الدم المتدفقة إلى المخ فيصحو الإنسان من نومه. وهذا هو أقرب الأقوال للصواب، ولكن هذا ليس هو التفسير الصحيح.

وقدّم الباحثون فيما مضى عدة نظريات لتفسير ظاهرة النوم والتي بينتها تلك النظرية المسماة بالنظرية يائية السابقة الذكر.. ولكن هذه النظريات كلها عجزت في الواقع عن تفسير الحقائق الصحيحة. وقد وصل العلم حديثًا إلى أن النوم عبارة عن طرح روحي مؤقت تترك فيه الروح الجسد ساعات خاصة من اليوم والليلة، وقد عد العلماء هذا نصرًا ما بعده نصر، وما زالت الأبحاث جارية لتفسير هذه الآية الإلهية.

وقد تكون هناك أسباب أخرى للنوم تتعلق بكهرباء المخ، فالنوم فترة راحة للمخ لا بد منها، وهو أشبه بإعادة شحن للطاقة.

وهناك تفسيرات واجتهادات أخرى أرى أن نتناولها في موضوع لاحق بإذن الله تعالى حتى لا يحدث للقراء الأعزاء بلبلة وحتى لا يتشعب الموضوع.

عالم الحيوانات والحشرات والطيور

إن من دلائل قدرة الله ووجوده أن تشترك الكائنات الحية جميعها في النوم، فالحيوانات تنام وتصحو كالإنسان، وقد ثبت أن الحيوانات تحلم كذلك في منامها. فقد ظهر بالتجارب أن بعض الكلاب تنهض من نومها فزعة تتلفت في كل الاتجاهات مما يدل على أنها كانت فريسة حلم مخيف.

وكذلك تنام الحيوانات الدنيا والأسماك والحشرات، غير أنه من الصعب تمييز حالتها بين اليقظة والنوم. وقد أجريت تجارب بالقرب من بعض الحشرات أو الحيوانات ليلاً لاكتشاف ما يثيرها ويفزعها، فلم يرصد لها أي حركة حتى الفجر، بينما ظهر عليها بعض الاختلاف بعد الفجر، حيث تصرفت تصرف الخائفة الفزعة.

ومن أرحم آيات الله أن الطير يمكنه أن ينام على غصنه، دون أن يقع رغم أن قبضةَ الطائر لا بد أن تسترخي كباقي عضلاته حين يغلبه النعاس، لكن الأوتار المسؤولة عن البسط والقبض في مخالب الطائر تلتف حول مفصل ساقه، وعندما ينام ويثني ثقل جسمه هذا المفصل تشد الأوتار مخالبه فيزيد تشبث قبضة الطائر على غصنه، ويتم ذلك بلا تفكير أو تدبير بل دون أن يعيها ويحسها الطائر.

عالم النبات

ولنترك عالم الطيور والحشرات والحيوانات ونتأمل عالم النبات.

لقد قرر علماء النبات أنهم بدراسة الأزهار والتطورات التي تشملها في كل وقت، اتضح لهم أن النبات ينام كما ينام كل كائن حي، وأن مشاهد النوم تظهر واضحة جلية في الأزهار.

كثيرون منا يظنون أن تفتّح الأزهار يحدث نتيجة لتأثرها بالشمس أو الضوء. والحقيقة غير ذلك، فقد ثبت أن تفتّح الأزهار لا دخل له بالشمس أو الضوء على الإطلاق، وأن ما نراه من قفول الأزهار وتفتّحها يرجع إلى نومها واستيقاظها من النوم.

فهناك أزهار تختص بها بعض فراشات الليل إذ تَفتح أزهارها في الليل، وتكون في تمام تفتّحها عند منتصف الليل... سواء أكانت قمرية أم مظلمة... وهناك أزهار تقفل أوراقها وتستسلم للنوم العميق ظهرًا، حتى إن أولاد الفلاحين في الجهات التي تنمو فيها هذه الأزهار يعرفون ميعاد غذائهم من نومها... وهكذا نرى أن النبات هو الآخر يحس ويتأثر وأن هناك فترات نشاط وكسل بالنسبة له.

سبحان الله... فلتتفكر أخي المسلم في هذه الآيات الواضحة، وليكن لك معها وقفات ووقفات. ■

(*) استشاري في طب وجراحة العيون، وعضو الجمعية الرمدية المصرية.

د. أحمد عبادي*

علومنا الإسلامية والسياق الكوني المعاصر (4)

خامسًا: العلوم الإسلامية سبل تجاوز الإشكالات وآفاق التجديد

كان مدار العلوم الإسلامية، كما سبقت الإشارة – منذ مبتداها على النص المؤسِّس نشأة وتداولاً، حيث كانت في منطلقها متمثلة له علمًا وعملاً، مما جعلها تنفتح على الكون وعلومه وعلى الإنسان ومعارفه، ورغم ما هي عليه اليوم في وضعها الحالي، فإنها تبقى قادرة على إلهام المفكرين وإعطائهم مجموعة من الآليات في غاية الفاعلية لتيمم شطر قِبلات أهدى سبيلاً.. وذلك من خلال:

١- وصل حوار العلوم الإسلامية مع القرآن الكريم

حين ننظر في القرآن المجيد نجد ضربين من العلوم علوم التسخير انطلاقًا من قول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الجاثية:١٣)، وعلوم التيسير انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(القمر:١٧).

علومُ التسخير تُدرَك من خلال النظر والتفكر ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(آل عمران:١٩١). وعلوم التيسير يمكن استخلاصها انطلاقًا من التدبر ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(محمد:٢٤).

والملاحظ هو أن علوم التسخير تطوّرت، وعلوم التيسير لم تتطور بالشكل ذاته؛ فعلوم التسخير تطورت بفضل الحوار المستدام بين الإنسان والكون، واجتهاد الإنسان من أجل استخلاص معالم الأبجد الكوني، واللغة التي بها يتم الحوار مع الكون، ممّا أدى إلى انفجار كل هذه العلوم التي نراها اليوم من الصناعات البسيطة إلى السبرنيطقا (La Cybernétique) في تعقيداتها الكبرى، وكذلك في مجالات (Synthetic Life) أي الحياة الاصطناعية التركيبية.

وتَبرز من خلال النظر في هذا الصوب قضية أخرى، دائمًا في ارتباط مع عدم تطور علوم التيسير، وهي وجود نبض معرفي رائع عند علماء الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين... حيث فُتح ملف علوم التيسير، كما رأيناه مع الإمام الشافعي في كتابه "الرسالة"، والإمام مالك، والإمام أبي حنيفة، والفقهاء السبعة قبل ذلك، حيث برزت بوادر علوم الفقه وأصوله؛ وعلوم القرآن والحديث واللغة والكلام وعلوم أخرى شكلت، بالفعل، مداخل للاستمداد من الوحي، ومن القرآن المجيد.

لكن بعد فترة قليلة من ذلك رأينا انحسارًا غير قليل في هذه الجهود وفتورًا في ذاك النبض؛ إذ حصل عجز اللاحق أمام عمل السابق بسبب تعظيم وتعزيز في أصلهما محمودين مباركين، غير أن ممارستهما غير الراشدة قد تؤدي إلى عدم التكامل بين مختلف أجيال

إن التجديد المنهاجي هو الذي من خلاله يمكن أن يتم إسهامُ المسلمين وشراكتهُم في تشكيل التاريخ المعرفي والحضاري الكوني، انطلاقًا من قوة اقتراح قابلة للفهم وللفحص، متأبّية على الردّ والتفنيد، وإلا فإن هذا التاريخ المعرفي والحضاري العام سوف يستمر في التشكل ونحن غيابٌ هذا الغياب الجزئي.

الأمة وراء أسوتها سيدنا رسول الله ﷺ. وبدأت تبرز عبارات مثل "ليس في الإمكان أبدع مما كان" وأضحت كثير من الجهود إثر ذلك، شروحًا لأعمال المتقدمين أو تصنيفًا لها أو حواشي عليها أو تذييلاً على الحواشي.

مع أننا حين ننعم النظر نرى بجلاء أن ثمة واجبًا دينيًا يتمثل في التجديد المستمر، وهو الذي يعبر عنه حديث رسول الله ﷺ، الذي يقول فيه: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الجاهلين وانتحال المبطلين وتأويل الغالين" (رواه الإمام أحمد) . فالتجديد في علوم التيسير في كل هذه المناحي أمرٌ فريضة على أهل الأمانة من العلماء، غير أننا نجد أن هذه الوظيفة لم يُستمر في القيام بها على وجه الكفاية كما يحض على ذلك هذا النص الكريم وأمثاله.

إن التجديد في هذه المناهج هو الذي من خلاله يمكن أن يتم إسهامُ المسلمين وشراكتهُم في تشكيل التاريخ المعرفي والحضاري الكوني، انطلاقًا من قوة اقتراح قابلة للفهم وللفحص، متأبّية على الردّ والتفنيد، وإلا فإن هذا التاريخ المعرفي والحضاري العام سوف يستمر في التشكل ونحن غيابٌ هذا الغياب الجزئي.

والذي يستطيع أن يحاور القرآن المجيد في موضوع مخصوص، لا بد أن تكون تضاريس عقله قد نحتت، ونقشت، لتكون قادرة على إجراء الحوار في ذلك الموضوع، فمثلاً لا يمكن أن نتصور أن الذي سوف يستخرج بعض معالم المنهج التربوي في القرآن المجيد سوف يكون من خارج علماء التربية؛ لأنه لن يلتقط الإشارات التربوية العميقة والدقيقة الموجودة في

hiragate.com

القرآن المجيد، إلا من قد نقشت تضاريس عقله بحسب مقتضيات هذا الفن، وأصبحت عنده ردود الأفعال التي تجعله ينتبه إلى هذه الإشارات الموجودة بخصوص التربية في القرآن المجيد.

لكن المشترك بين هذا الذي سوف يحاور القرآن المجيد في علوم التربية، وذلك أو تلك الذي أو التي سوف تحاور القرآن المجيد في علوم البيئة، أو الذي سوف يحاوره، أو تلك التي سوف تحاوره في مجال الاجتماع، أو في مجال المناهج، أو في مجال السياسة، أو في مجال السبيرنيطيقا، أو في أي مجال من المجالات، لا يمكن إلا أن يكون ذا أو ذات خلفية في هذا الباب لكي يكون الاستعداد للحوار، وبهذا تنفتح أمامنا فعلاً آفاق متعددة متنوعة ومتكاملة في آن بين كل هذه الفئات.

ولكن في قدر مشترك ينطلق مما تقدم، أي العلم بطبيعة القرآن المجيد، وكذلك الاستمرار في الحوار مع القرآن المجيد مع استجماع الوسائل المُمَكِّنة من ذلك، وهذه الشروط قد نص عليها علماؤنا في مظانها كالإمام السيوطي (ت ٩١١ هـ) في "إتقانه"، والإمام بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) في "برهانه" بكلام جامع، ومانع، يعتبر المنطلق للتعامل البنّاء مع القرآن المجيد، والذي من خلاله سوف يتمكن الإنسان من القيام بوظيفته؛ والتي هي نقل الهداية للتي هي أقوم الكامنة في القرآن الكريم إلى دنيا الناس، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(الإسراء:٩).

وهذا التقرير وحده لو أننا أعملنا فيه الفكر، واجتهدنا لفهم أبعاده، لرأينا أن ثمة اختلالاً ما، فلو أننا تساءلنا سؤالاً أوّلاً، انطلاقًا من تقرير الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، وبما أن هذا تقريرٌ إلهي، فهل يمكن أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه؟ هل يمكن تصور حالة لا يهدي فيها هذا القرآن للتي هي أقوم؟ بالطبع لا. وإذا كان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، هل حالنا اليوم ينطبق عليها أنها التي هي أقوم في كافة المجالات؟ وما هي المجالات التي يمكن أن نزعم أنها داخلة في التي أقوم؟ وما هي المجالات التي يمكن أن نقرر أنها ليست داخلة في التي هي أقوم؟ وما هي معايير ذلك؟

ولا شك أن عددًا من المعارف، وعددًا من العلوم التي تفتّقت ذات اليمين وذات الشمال، علوم من شأنها تمكيننا من أن نبدأ في علم منهاجيّ جديد، فقط من خلال آية سورة الإسراء، مثل أن نحدد معايير التي هي أقوم في كل مجال على حدة، وأن نستدرك التخلف والتراجع عن التي هي أقوم، لكي نرجع إلى التي هي أقوم.

٢- إحياء سنة التساؤل

واضح من خلال النظر العام في تاريخ الإنسان أن التساؤل رافعة أساس من رافعات الكسب البشري فوق هذا الكوكب، وأنه يتشعب على احتمالات لا انتهاء لها: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾(الليل:٤)، احتمالات يكون المحدد لها هو رغبات الإنسان وميوله وطموحاته وآماله. وذلك من خلال ما تستدعيه هذه الدوافع من تساؤلات تتسق معها، وعلى قدر إتقان التساؤل، وإتقان استخلاص الإجابات عنه تكون فاعلية الإنسان في الكون المحيط به. وهو تساؤل ينبغي أن يكون -كما إجاباته- باللغة التي يفهمها الكون.

وحين كف الحوار في واقعنا الحضاري مع الكون للأسف، رأينا أننا أصبحنا نستهلك المنتجات التي ينتجها غيرنا؛ لأن علوم التسخير، رهينة بالقراءة في الكتاب المنظور، وأصبحنا عالة على ما كان عندنا قبلاً، قبل أن نحتك بهذه الحضارة التي استمرت في حمل المشعل الذي استلمته غلابًا من عندنا، واستمرت في هذه القراءة وفي هذا الحوار، توظيفًا للكشوفات التي حصلت قَبلاً بناء عليها وإضافة إليها.

فحين كف الحوار مع الكون في عالمنا، وفي فضائنا الحضاري، أصبحنا عالة على ما كان.. فحين تغيب علامات الاستفهام، يغيب المنهج، لأن الذي يشي بالمنهج ويكشف عن وجوده هو التساؤل، وهو ما يبرز في قوله سبحانه: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۞ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۞ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ (النبأ: ١-٣) وتستمر التساؤلات إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾(النبأ: ١٧)،

hiragate.com

hiragate.com

حيث تختم الحياة بيوم الفصل، يوم القيامة، مما يعني أن التساؤل وجب أن يكون مرافقًا للإنسان إلى أن تنقضي حياته. نصوصنا اليوم فيها عقم من حيث علامات الاستفهام، وهو مؤشر على الحالة التي يوجد عليها الحوار مع الكتابين في عالمنا اليوم.

وواضح من خلال النظر العام في تاريخ الإنسان أن التساؤل يتشعب على احتمالات لا انتهاء لها: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾، احتمالات يكون المحدد لها هو رغبات الإنسان وميوله وطموحاته وآماله، وهو ما يستدعي تساؤلات تتسق معها.

إن تساؤل الإنسان إذن -في هذا الكون ومعه- هو حركته، وهي حركة تشكل الدوافعُ والنزعاتُ الكامنةُ المولدَ لوجهتها. يمكن إذن تشبيه حركة الإنسان في الكون بحوار -إذ كلما حصل على جواب من الكون حوله إلى سؤال آخر أكبر، كدحًا إلى الملاقاة يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ﴾(الانشقاق:٦)- فإن كان الحوار مثمرًا، والإثمار مسؤولية يتحملها الإنسان لأنه هو المسخّر والكون هو المسخَّر، أصبحت حياة الإنسان في الكون ممكنة، وإلا فإنها تنعدم.

وتاريخ الإنسان يحفل بحالات عسر الحياة أو انتهائها التي نجمت عن عجز الإنسان عن إجراء الحوار المثمر مع الكون، فالأرض قد قدَّر رب العزة فيها أقواتها؛ ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾(فصلت:١٠)[1]، غير أن ثمة أيضًا تجارب مرت تبين أن الحياة تستمر، ولكن بتردٍّ مستمر عبر دركات ومهاوي الذلة والحيرة والتبعية. وما ذاك إلا بسبب تداعي الرغبات غير المنتظمة في نسق مشروع بيّن العواقب يجعلها (أي الرغبات) تولد طاقة دافعة لتحقيقه.

إن تنوع وتعدد أسباب العيش وأماكنه والحوائل دونه، وكذا تعدد طموحات الإنسان وآماله التي يريد أن يبلغها، وتعدد وتنوع آلامه التي يريد الفرار منها يفرض عليه تقلبًا دائمًا في المواقع، وهي مواقع ليس يسهل عليه منها جعل حركته معانقة لقبلته، فيصبح التوجه ضرورة في حياة الإنسان، لكونه شرط هذه

الذي يمكّن من الفعالية في الحركة هو فقه علوم الكون (علوم التسخير). والذي يمكن من الرشد في الوجهة هو فقه علوم الوحي (علوم التيسير).

المعانقة. فللسلامة والفوز لا بد من المعرفة بالقبلة التي ينبغي أن يسجد نحوها ويقترب منها: ﴿كَلَّا لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾(العلق:١٩) ولا بد من إبصار العلامات / البصائر الذي تُحدد الوجهة السليمة نحو القبلة انطلاقًا منه: ﴿وَعَلاَمَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾(النحل:١٦)، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾(الأنعام:١٠٤)، كما أنه لا بد من الحركة وفعل السجود، إذ لا معنى لمعرفة القبلة وتحديد الوجهة إن لم يكن هذا يستتبع حركة وسجودًا نحوها.

فإذا نحن نقلنا النظر من الإنسان فردًا إلى الإنسان جماعة حيث يكون السعي شتى، ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ۞ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾(الليل:٣-٤) وحيث بالتبع تتعدد المواقع بتعدد الناس، وما يستبطنه كل واحد منهم من دوافع؛ فإن التحدي يصبح أكبر، ومفاده هو: كيف يُحصّل الانتظام نحو القبلة الواحدة عبر هندسة لمختلف الوجهات تجعل حركة متوجهيها متكاملة متضافرة غير متضاربة ولا متنافية؟ بعبارة أخرى: كيف تصبح هذه الجماعة المقبلة في ظل الوحي المُعلِم بالقبلة قادرة على إبصار الآيات والبصائر المحكَمة المفصَّلة المصرَّفة التي تعين على تحديد الوجهات المتكاملة، لكل من موقعه، فتصير الجماعة أمة تؤم قبلة واحدة.

إنه لا مناص لكي توجَد الأمة من إمام يهدي إلى القبلة بسيره الراشد، كما يهدي إلى منهج تبيُّن الوجهة نحوها، بتلاوة الآيات والبصائر، وبتزكية أفراد الأمة كيما يشكلوا باجتماعهم جماعة مقبلة على ربها، كما يهدي بتعليم الحكمة الممكّنة من تأويل الآيات والبصائر والعمل بمقتضاها.

إن خلق الكائنات -ما خلا الإنسان- مُعَرَّفة الحركة والوجهة، أي دوام سجودها وحتميته -كما تقدم- يجعل

hiragate.com

من الحركة والوجهة في المجال الكوني شيئًا واحدًا. إذ الكائنات ما خلا الإنسان تتمكن من الحركة نحو قبلتها ابتداءً، إذ هي كما أعطيت الخلق أعطيت الهداية: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(فصلت:١١)، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(طه:٥٠)، ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۞ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾(الأعلى:١-٣). فالحركة والوحي في المجال الكوني بناء على هذا مندمجان بخلاف حالهما في المجال الإنساني حيث هما منفصلان، فالإنسان لا يتمكن من السجود إلا بقدر تخلصه من مختلف السجون المحتوشة[٢] له واضطلاعه بالأمانة التي حملها دون الكائنات كلها: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٢).

فالذي يمكّن من الفعالية في الحركة هو فقه علوم الكون (علوم التسخير). والذي يمكن من الرشد في الوجهة هو فقه علوم الوحي (علوم التيسير).

وفي الآن ذاته فلا الكون ولا الوحي يجعلان السجود حتميًا في المجال الإنساني بل يجعلانه ممكنًا وعلى الإنسان اتخاذ القرار بتحقيق ذلك في حياته فردًا وأمة.. فالعطاء غير مجذوذ ولا محظور يقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۞ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾(الإسراء:١٨-١٩)، وفرصة الإنسان حياته؛ فإما اهتداء وإما ضلالاً.

وقد أثبتت تجربتنا التاريخية المشتركة أن الرشد الذي برهنا عليه مجتمعين لم يبلغ درجة الكفاية، حتى في إطار تديناتنا المتنوعة، فالقراءة للتاريخ تثبت أن تعاطينا مع الوحي وهداياته لم يكن فيه -في الأغلب- التوجّه لهذا الوحي لنستمد منه أجوبة عن سؤالاتنا، وإنما كان تعاملنا معه -على الأعمّ- تعاملاً استعماليًا من أجل أن ننصر به قضايا ضيقة، أو أن نقضي به أغراضا زائلة، وقد يقارف هذه القضايا وهذه الأغراض في كثير من الأحيان إضرار بالذات أو بالمحيط، أو بهما معًا.

إن إنتاج الهدي من القرآن والسنة النبوية متوقف على فهم الوحي الذي يُتدين به والواقع الذي يُتدين فيه وأخذ بعين الاعتبار آليات التأقلم والتكيف بين الطرفين.

٣- ضرورة وعي الموقع والتجسير بينه وبين هذه العلوم

من أُولى علامات الحضور والشهود الحضاريين عند أمة من الأمم قدرتها على فهم واستيعاب ما يحيط بها من أحداث ووقائع، وتبين ما يكمن وراءها من مفاهيم ومعتقدات وقيم ومناهج وأفكار، وكذا قدرتها على بلورة مواقف إزّاء كل ذلك؛ مواقف يتم قياس جدواها بحسب تأثيرها في تأطير السلوك العام وتعبئته لاجتناب مصادر الخلل، وكذا القدرة على صوغ أحلام لها قدرتها التعبوية المُوجهة لجهد الإنسان في تناسق مع المكان، واستعمال راشد للزمان. ومن المؤسف أن نرى أن كسب أمتنا في هذه الاتجاهات قد غِيض وانحسر منذ زمن غير قصير، فانفكت عرى العلاقة مع الواقع والكون والوحي، وطفقنا نتعامل مع هذه المصادر الموجهة لكسب الإنسان، تعاملاً تجزيئيًا واجترايًا ومقلدًا في بُعد تام عن التكامل بينها.

ولا يختلف اثنان اليوم أن من أبرز سمات عالَمنا الراهن، التركيب، والتداخل، والسرعة وفداحة وكِبَر الآثار التي تترتب عن التصرفات بسبب ذلك، ومن هنا فإن من مقتضيات العيش في العصر الراهن القُدْرة على استيعاب هذه السمات من جهة، ثم القدرة على التجاوب معها بفعالية وإيجابية من جهة ثانية.

ذلك أن إنتاج الهدي من القرآن والسنة النبوية متوقف على فهم الوحي الذي يُتدين به والواقع الذي يُتدين فيه وأخذ بعين الاعتبار آليات التأقلم والتكيف بين الطرفين.

ونحن في هذه المرحلة أحوج ما نكون إلى فتح الأبواب على الواقع كما هو، لنتمكّن من إدراكه على ما هو عليه، لنكون أقدر على تصييره ذلك الواقعَ الذي نحلم به، فكلنا نحلم بالتسامح وبالجمال وبأن تكون

hiragate.com

البشرية متعاونة على البر والتقوى فوق هذا الكوكب، ولكن الواقع يُثبت أن ثمة سوابق معرفية وبرديغمات تؤطر الأذهان، ومن خلال هذا التأطير تُوجِّه الواقعَ وسلوكَ الإنسان. وبالتالي فإنه لا بد من فتح هذه المنطقة ودخولها لاستكشافها وتنقيتها وإعادة ترتيبها؛ وهي خمسة أمور لا يمكن تصوّر تحققها بدون اعتماد مستلزماتها ومقتضياتها، وفي طليعتها الأساس المعرفي البحثي العلمي.

ففتح رمّانة المعتقدات والتصورات والسوابق المعرفية والبرديغمات والقيم والمعايير، وإحصاءُ حبّاتها عددًا، وقياس تأثيراتها، وتتبع تجلياتها في حياة الناس أفرادًا وجماعات، أمر لا يمكن بدون ركوب مَركب المعارف المساعِدة، والتشميرِ للقيام بالبحث العلمي اللازم بالمناهج الملائمة، مراعاة للسياقات التاريخية والحضارية والثقافية المتنوعة.

كما لا يمكن تصور دخول هذه المجالات المركّبة دون الاستثمار الزمني والنفسي والذهني والمادّي الملائم، إذ هو دخول لا يمكن أن يتم دون التعاطي الميداني التفاعلي المباشر مع أهلِ ومكونات الحضارات المختلفة.

أما الاستكشاف، فلا يمكن تصوّر وقوعه بدون ما يلزم من آليات منهاجية ولغوية للتعايش مدخل الاستكشاف، وكذا يلزم من مهارات ومقتضيات مادّية لدراسة العلوم والآداب والفنون والصنائع والشرائع والنظم، والتي هي جميعًا مُتجلّى المعتقدات والتصورات والسوابق المعرفية والبرديغمات المؤطرة والقيم والمعايير، مع ضرورة مواكبة ذلك كله بالانتباه المتوفّز للفروق بين مختلف الحقول العلمية والعملية، والتفاوتات التاريخية، ومع الملاحظة الدقيقة والجمع المستوفي للمعطيات مع دراستها وتحليلها بالمناهج الملائمة، وهي مناهج يضطر المستكشف في كثير من الأحيان أن يبنيها بناء.

كما لا يمكن تصور القيام بتنقيةٍ، دون امتلاك ناصية المعرفة الدقيقة بالأصول والمنطلقات، إذ لا تعدو التنقية في نهاية المطاف تصفية الأمور ممّا يشوبها عبر الزمن وردّها إلى أصول نشأتها الأولى دون تمحّل ولا تكلّف، كسحًا للألغام المفاهيمية، والإعاقات التصورية التي قد تتسرّب إلى هذه الأنساق خلال مساراتها التاريخية وتقلباتها الاجتماعية، فتحجمها وتلجمها أو تفتحها على سراديب الكلّيانية والعنف الحضاري والدمار المدني.

لا يخفى أن هذا التجسير أمر عملي إجرائي بامتياز يقتضي وضوحًا في عناصره الثمانية، وهي:

١. **التوجيه**: هو الجانب الاستراتيجي التقديري.

٢. **التخطيط**: هو عبارة عن تصميم في مجالات الإنسان والمجال والزمان والإمكان لبيان كيفية تنزيل هذه الاستراتيجيات على أرض الواقع، وبرامج ذلك وما يحف بها من إجراءات وضبط وتدقيق.

٣. **التشريع**: وهو عبارة عن الشرائع والقوانين المؤطرة والميسّرة والحامية لعمليات التنزيل.

٤. **التنظيم**: وهو عبارة عن كيفية تدبير سائر عمليات التنزيل والموارد البشرية والتقنية والمادية المعينة على ترتيب ذلك.

٥. **التعيين**: للمسؤولين عن هذا التنزيل أفرادًا ومؤسسات، وفق مؤشرات وظيفية واضحة.

٦. **التمكين**: فلا معنى للتعيين دون منح الإمكانات المادية والمعنوية المسعفة في القيام بوظائف ومقتضيات التنزيل.

٧. **الإنجاز**: أي لكل ما سلف.

٨. **التقويم**: وهو الذي يمكّن من النظر في ثمرات هذا التنزيل وتطويرها. ■

(*) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

الهوامش

(١) ألا ترى إلى اليابان المشكل من جزر كثيرة الزلازل والميَدان كيف استطاع أهله جعل الحياة فيه ممكنة بإحسانهم لغة الحوار مع الكون؟

(٢) يتخلص من سجن نفسه (أهوائه، غرائزه، نزعاته..) بالمجاهدة والتزكية، ومن سجن محيطه بالتوكل، ومن سجن العقائد والمفاهيم الباطلة بالإخلاص، ومن سجن الأشياء بالتوق إلى الآخرة المنتج للزهد، ومن سجن الطاغوت بالجهاد الكبير بالقرآن وما يوجه القرآن إلى الجهاد به.

hiragate.com

د. محمد باباعمي*

إن السعداء الذين يعيشون حياتهم بإيمان ووعي، يتجاوزون "ديار المحنة" هذه مرفرفين بأجنحة آمالهم المحلِّقة، ومستنيرين بضوء أفكارهم المشرقة. أولئك يعلمون أنهم إنما جاؤوا إلى هذه الدار الفانية للنقاء والصفاء.

الموازين

زينة الإيمان وتعب الطريق

١ الدنيا جيفة وطلابها كلاب.. هذا هو الوجه المذموم للدنيا؛ ومن ناحية أخرى، الدنيا مزرعة للآخرة، وكذلك هي مرآةٌ تتجلى فيها أسماء الله الحسنى وتعكس جماله ﷻ. وإن النظر إلى الدنيا من خلال هذين الوجهين ثواب، وهو نظرٌ يكشف أفق معرفة الإنسان ثم يسوقه إلى الله. أمَّا الأكل والشرب والنوم والتفكير في جمع ثروات مثل قارون، واستغلال كل الفرص لحساب النفس والشيطان دون التفرقة بين الحلال والحرام، فهي أفعال مشوبةٌ بالجانب المذموم من هذه الدنيا. ولقد وصف صاحب الشريعة المتكالبين على الدنيا بـ"الكلاب"، وهذا يؤكد أهمية هذه المسألة؛ ذلك أنه ﷺ لم يتلفظ بكلام سيء، لكن عندما نظر إلى الجانب السيء من الدنيا (الجيفة)، قال هذا الكلام ليكون مطابقًا للواقع.

تظهر الدنيا أمام الإنسان بزينتها ومتاعها وبكل جاذبيتها، وترغب في ربط ذلكم الإنسان بها، لكن مَن تعلَّقت قلوبهم بحب الله منذ زمن بعيد، يعيشون في هذه الدنيا مشتاقين لرؤيته، ولا يتحدَّثون إلا عنه سبحانه.

إذا لم يوصَف المرء بالجنون، فهذا يعني أنَّ إيمانه ناقص؛ ذلك أنَّ صاحب الإيمان الكامل يُعرِض عن كافة أنواع سلطنات الدنيا ومتاعها والإمكانيات التي تستدرجه حتى أسفل قدميه، ولا يستغل أي شيء لصالح الدنيا، وحتى إن فعل ذلك إنما يفعله في سبيل الله. فهو يردد دومًا: "يا إلهي! إني أريد أن أستغل هذه الإمكانات من أجل إعلاء كلمتك، وإقامة صرح أرواحنا الذي هدمناه".

إنَّ من كان قبلكم لم يُفسحوا المجال لرسولنا الأكرم ﷺ يومًا ليضحك. يقول الدارسون في السيرة والذين يحاولون رسم شخصيته المعنوية وصورته الروحية: "رأيناه يضحك في حياته حتى بدت نواجذه ثلاث مرات فقط". وكلُّها كانت تحمل رسائل وبشائر تتعلق بكم. فإن كان قد ضحك فقد ضحك في مثل هذه الأحوال ومن أجلكم؛ لأن هؤلاء المعاندين لم يعطوه الفرصة لأن ترجع شفتاه إلى الوراء ليضحك، بل حوَّلوا الحياة بالنسبة إليه جحيمًا؛ لكنه -فداه روحي- كان مرتبطًا بدعوته، واعيًا بما يفعل، لدرجة أنه ظل مصممًا على البقاء في هذه الدنيا حتى أتاه اليقين.

تظهر الدنيا أمام الإنسان بزينتها ومتاعها وبكل جاذبيتها، وترغب في ربط ذلكم الإنسان بها، لكن مَن تعلَّقت قلوبهم بحب الله منذ زمن بعيد، يعيشون في هذه الدنيا مشتاقين لرؤيته، ولا يتحدَّثون إلا عنه سبحانه.

حراء

أذِن الله أن يعاني سيدنا محمد ﷺ أقسى أنواع العذاب في هذه الدنيا، كما وهبه أعمق أنواع المعرفة.

أدعو الله أن يرزقكم أنتم كذلك ذلك الاشتياق..!

ولتتحرق أرواحكم دائمًا بهذا الاشتياق إلى الله، واسعوا جاهدين دومًا من أجل إقامة صرح أرواحكم، ولتجري أحداث الزمان أحيانًا في صالحكم وأحيانًا أخرى ضدكم.

"الخير فيما اختاره الله"... مهما قدَّر الله لعباده من نتائج، فلا ريب أن ما يقدّره لهم هو الاختيار الأنسب والأكثر فائدة وبركة. نعَم، إن الخير في كل ما خلقه الله واختاره..!

ربما يبتلينا الله بنا لنتقرَّب إلى بعضنا البعض ونتَّحد. إذن، فعلينا أن نتَّحد كالبنيان المرصوص كما نقف في الصلاة جنبًا إلى جنبٍ، ويجب أن نفكّر أنَّ الله هو الذي قد فعل هذا راضين مطمئنين؛ ونقول "الحمد لله على كلِّ حال، سوى أحوال أهل الكفر والضلال".

كما تكونوا يولَّى عليكم

ومن ناحية أخرى، علينا أن لا ننسى ما روي في الأثر؛ "كما تكونوا يولَّى عليكم"، كان هناك شخص يدعى طاهر أفندي وهو من أوائل أعضاء البرلمان في تركيا. ومن العلماء والفضلاء. وفي الوقت الذي كان سائر أعضاء البرلمان الآخرين يلقون كلماتهم أمام الجماهير، كان طاهر أفندي يلتزم الصمت قابعًا في ركن من الأركان. سأله أنصاره يومًا: "متى تتكلم أنت أيضًا يا سيدي، كل نائب بالبرلمان يتكلم فيفخر به أنصاره، فماذا لو تكلمتَ فنفتخر بك!". وكان طاهر أفندي شخصًا يتكلم قليلاً، ولا يخوض إلا في المفيد، فخاطبهم قائلًا: "اعلموا أنكم منتخِبون، وأنا منتخَب. وأمَّا المكان الذي سنذهب إليه فهو منتخَب إليه (أي البرلمان). وما تفعلونه يسمى الانتخاب. وهذه الكلمة تشتق من النخبة التي تعني الزَّبد. ولا تنسوا أنَّ الزَّبد يكون من جنس الشيء الذي يوجد تحته: فزبد الزبادي يكون من الزبادي، وزبد الحليب يكون من الحليب، وزبد الشَّبِّ يكون من الشَّبِّ".

عندما سمعت هذا الكلام، قلت: إنَّ هذه هي كرامتك يا أستاذ طاهر! فأنا لم أرَ أحدًا ضرب مثلاً على هذا الأثر "كما تكونوا يولَّى عليكم" بهذه الطريقة حتى اليوم.

يقول الله في كتابه الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(المائدة:١٠٥).

إذا كنتم تعرفون ذلك حقًّا، وتؤمنون بصحَّة الطريق الذي تسلكونه؛ فاستمروا في هذا الطريق وذلك بمضاعفة أعمالكم وحركاتكم. وإن الطريق الذي تسيرون فيه هو طريق إقامة صرح أرواحكم؛ وهو طريق المضي قدمًا نحو "المدينة الفاضلة" من وجهٍ، والتخلص من الآثام من وجه آخر، وهو طريق التوجه إلى الكمال الذي يهدينا إلى إرضاء الله ﷻ، من وجه ثالث.

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران:١٣٩). ثقوا أنَّ الله تعالى سيحوّل هذا التفوق إلى مخطط واقعي يومًا ما، ولسوف تجدون أنفسكم في موقع لم تتخيلوه من ذي قبل لدرجة تدهشكم.

إنَّ مَن لا يزين إيمانه بالمعرفة لا ينجو بنفسه من تعب الطريق. ومن لا يستطيعون تعميق معرفتهم بالعشق والمحبة لا ينجون من التصوّر في شبكة الشكليات.

وبدلاً من أن تشغلوا أنفسكم بأسئلةٍ من قبيل "ماذا سيحدث بعد ذلك؟"، علينا أن نستغل طاقتنا الفكرية في طريق إيصال فعالياتنا وإرادتنا والأمانة التي نتحمَّلها على عاتقنا إلى الأجيال القادمة، دون تبديل أو تغيير؛ لكأنه ليس لدينا أية علاقة بهذه الدنيا.

ويجب أن نكون شجعانا وعلاقتنا بالله قوية لنستطيع ردّ الدنيا بكل ملذاتها وزخارفها. ■

(*) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.

hiragate.com

أ.د. بركات محمد مراد*

ثابت بن قرة المترجم

ورائد علم التكامل والتفاضل

لقد كان للعالم المسلم ثابت بن قرة الحراني المتوفي عام ٩٠١م الفضل في ابتداع علم التفاضل والتكامل (Calculus) وأسهم معه في هذا الفضل المفكر العربي البوزجاني، وكان لهذا العلم تأثيره الملحوظ في تقدم الرياضيات والعلم الطبيعي في عصرنا الحاضر.

وتخبرنا كتب التاريخ أن ثابتًا وهو أشهر علماء الصابئة في العهد الإسلامي بدأ حياته في حران، حيث كان يمارس مهنة الصيرفة، ثم ارتحل إلى بغداد لخلاف بينه وبين علماء دينه، وكان يحسن اللغة اليونانية والسريانية والعبرية، فضلاً عن العربية، كما كان يجيد النقل والترجمة إلى العربية، ومن حذاق المترجمين، وكانت له مكانة ممتازة بين من نقحوا وأصلحوا الترجمات العربية للكتب الرياضية والفلكية، كما يخبرنا المؤرخون أنه اشتغل بعلوم الأوائل فمهر بها وبرع، وكانت له معارف واسعة ونشاط هائل فيها. فاتخذه الأمير المعتضد -الذي أصبح خليفة فيما بعد- صديقًا له. وفي أثناء خلافته وصل ثابت بن قرة إلى أعلى المراتب في الدولة رغم أنه كان وثنيًا ليس من أهل الكتاب، ومنذئذ قرب الحرانيون الوثنيون من الخلفاء، ثم من بني بويه وارتفع من شأن الصابئة.

ثابت بن قرة المترجم

يعتبر ثابت بن قرة الحراني الصابئ، وحنين بن إسحاق وغيرهما من المترجمين المسيحيين والسريان واليهود والصابئة، أفضل نموذج يمكن أن نأتي به للتدليل على مدى سماحة الدين الإسلامي والمسلمين في

تعاملهم مع أصحاب الديانات الأخرى، وإعطائهم نفس الفرص المتاحة لكل إنسان يسعى إلى تحقيق مكانة علمية واجتماعية لائقة في مجتمع لا يفاضل بين رعاياه إلا بالتقوى والعمل الصالح، فلم يتعصب المسلمون للعرب ولمن اعتنق الدين الإسلامي، فقد تولى المسيحيون واليهود، بل والصابئة والمجوس، أرفع المناصب السياسية والعلمية والاجتماعية في زمن الدولة العباسية في المشرق، كما تولوا كثيرًا من المناصب السياسية والعلمية والإدارية في بلاد المغرب والأندلس.

أما أهم الترجمات التي أنجزها ثابت بن قرة إلى اللغة العربية فهي: المقالات الثلاث الأواخر من كتاب المخروطات لابلونيوس، الذي جمعه رجل من عسقلان يعرف بأوطونيوس، وكان هذا مبرزًا في علم الهندسة، وكتاب المجسطي لبطليموس، وكتاب الأصول في الهندسة لإقليدس، وكتاب الأرثماطيقي، وكتاب الخطين لأوطوقيوس، وكتاب الجغرافية في المعمور وصفة الأرض، وثماني مقالات، وقد نقله ثابت نقلاً جيدًا، وكتاب تفسير كتاب بطليموس في تسطيح الكرة لمؤلفه بيس الرومي.

مؤلفاته

وقد كتب عددًا من الرسائل الصغيرة في الفلك والهندسة، وكان له عليها تعليقات جيدة، ولم يقتصر نشاط ثابت على النقل والتأليف في الرياضيات والفلك، بل لقد امتد إلى ميدان الطب أيضًا. فقد ترجم كتاب الأدوية المفردة لجالينوس، وإننا لندين له بكتاب (الذخيرة في الطب) الذي وضعه لابنه سنان. وقد ضاعت أكثر هذه المؤلفات والنقول في الحروب والانقلابات والحرائق، ولم يصل إلينا إلا القليل منها. وعامة فقد بلغت مؤلفاته ثلاثة وعشرين كتابًا، منها خمسة في الطب والباقي في الحساب والهندسة والفلك، هذا فضلاً عما كتب في طقوس الوثنيين وتعاليمهم.

ومن أهم مؤلفاته: المدخل إلى الأعداد؛ كتاب في الأعداد المتحابة، كتاب مختصر في الهندسة، كتاب مساحة الأشكال -المدخل إلى إقليدس- في المخروط المتكافئ، رسالة في الدوائر المتماسة، رسالة في حجم الجسم المتولد عن (دوران) القطع المكافئ، كتاب في تصحيح مسائل الجبر بالبراهين الهندسية. أما مؤلفاته في الطب والصيدلة، فله كتاب في وجع المفاصل والنقرس، والحصى المتولد في المثانة، وكتاب الذخيرة.

لقد كانت الترجمات التي أنجزها ثابت بن قرة من الأهمية بمكان، بحيث سهلت على أولئك الدارسين الذين لا يعرفون اللغة اليونانية الاطلاع عليها والوقوف على ما وصل إليه علماء اليونان في كل مجال تطرق إليه في ترجماته.

ولا ننسى أن في دار بني موسى بن شاكر كان يعمل دون إبطاء، فريق كبير من المترجمين من أنحاء البلاد تمامًا كما كان يفعل المأمون بالذات الذي كان يوفد الرسل أيضًا بحثًا عن المخطوطات القديمة، للمترجمين والنقلة. ومن الوسائل الأخرى التي اتبعها أبناء موسى، بقصد تشجيع حركة الترجمة وتنشيطها الناحية المادية، حيث كانوا يغدقون على النقلة كل ما يحتاجون إليه من مال لينقلوا لهم ما يحتاجونه من علوم ومعارف، وبهذا الصدد يذكر "القفطي" في كتابه "تاريخ الحكماء": "... وإن بني المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة منهم حنين بن إسحاق، وحبيش بن الحسن، وثابت بن قرة، وغيرهم في الشهر خمسمائة دينار للنقل والترجمة والملازمة".

ومن هذه الزاوية، فإن هذا الفيلسوف والرياضي كان له وقعه في ازدهار حركة الترجمة من جهة، وتمهيد السبيل أمام العلماء العرب في السير بهم إلى ما وصلوا إليه من تطور وتقدم في شتى مجالات العلوم من جهة أخرى، وبهذا الشأن يذكر صاحب "كشف الظنون" "حاجي خليفة" أنه: "... لولا تعريب ثابت بن قرة لما انتفع أحد بالكتب الحكمية (الفلسفية) لعدم المعرفة باللسان اليوناني، وكل كتاب لم يعربوه بقى على حاله ولا ينتفع به".

ومن هنا لا يكون غريبًا أن نجد بعض المستشرقين المحدثين مثل "ألدوميلي" الإيطالي يعترفون بفضل ثابت الكبير في حركة الترجمة، وخاصة مؤلفات

hiragate.com

أرشميدس، ولطيقوس، وإقليدس، وتيودوزيوس... إلخ. كما ندين له بتنقيح ترجمة أصول إقليدس تنقيحًا دقيقًا، وتصحيحه لترجمة كتاب هام قام به إسحق بن حنين في علم النبات لأرسطو، وكثير من هذه الترجمات والشروح فقدت في أصولها اليونانية، ولم يبق إلا ترجماتها العربية التي يعود إليها كثير من الدارسين الشرقيين والغربيين في العصر الحديث على حد سواء.

الرياضي والفلكي

بسبب ما عرف عن ثابت من علم ودراية بأمور الطب خاصة، فقد أصبح موضع تكريم ورعاية الخلفاء الذين دخل في خدمتهم وبخاصة الخليفتين المعتمد (٢٧٩هـ/٨٩١م)، والمعتضد (٢٨٩هـ/٩٠١م) ولذلك يقول القفطي: "وبلغ ثابت بن قرة هذا مع المعتضد أجل المراتب وأعلى المنازل، حتى كان يجلس بحضرته في كل وقت، ويحادثه طويلاً ويضاحكه، ويقبل عليه من دون وزرائه وخاصته".

لقد غطى ذكاء ثابت بن قرة كل مجال طرقه في حياته العلمية والعملية، وإن آخر هذه المجالات هو مجال التصنيف، فقد كان ثابت مؤلفًا قديرًا في جميع مؤلفاته، وفي مختلف العلوم التي تناولها في بحوثه، وقد شهد له بالمقدرة والكفاءة في ذلك كل من أرخ له. وإن مؤلفاته لتدلنا على مدى نبوغ هذا الرجل الذي لم تعرف مدرسة حران نظيرًا له على الرغم مما أنجبته هذه المدرسة من علماء في جميع المجالات، ولذلك يرى بعض المستشرقين أن ثابت بن قرة كان من أكثر العلماء تألقًا وإنتاجًا عند المسلمين.

وتجدر الإشارة إلى أن براعة ثابت بن قرة في مجالي الرياضيات والفلك على وجه التحديد، قد كان لهما أثر مباشر في مضمار ما ترجم من تراث يوناني إلى العربية في هذين الحقلين حيث جاءت الترجمات العربية للمصنفات اليونانية التي اضطلع بها ثابت على جانب كبير من الجودة، وهذا هو ما يفسر لنا سبب اعتماد المهتمين بالتراث الرياضي والفلكي اليوناني في زمن ثابت أو فيما بعد على ما أنجزه هذا الحراني من ترجمات في هذين الحقلين، ولعل ما تولاه ثابت بن قرة من ترجمات لمؤلفات إقليدس الرياضي وبطليموس الفلكي، وبقاء هذه الترجمات النموذج الأمثل لمصادر العرب في هذين المجالين، إن هو إلا دليل قوي على أهمية هذه الترجمات الحرانية.

ومن ناحية أخرى فإن ما قام به ثابت بن قرة من نشاط كبير في مضمار التأليف، يعبر أصدق تعبير عما امتاز به ذلك الفكر الحراني من الذكاء والإبداع في كل مجال خطه قلمه ونفذت إليه بصيرته. ولا نغالي إذا اعتبرنا صاحبنا هذا موسوعة علمية، ضمت معظم ما كان شائعًا من علوم ومعارف ذلك العصر الذي عاش فيه المترجم والطبيب والرياضي والفلكي ثابت بن قرة الحراني. لقد اشتهر ثابت بعلم الهندسة، فكانوا يصفونه بسرعة البديهة، وبأصالة التفكير، ولقد مدحه المؤلف الكبير "ول ديورانت" في كتابه "قصة الحضارة" بقوله: "إن ثابت بن قرة أعظم علماء عصره في علم الهندسة، فكان لامعًا بين إخوانه العرب". وأضاف المستشرق: "روبرت ماركس" في كتابه تطورات الرياضيات: "إن أعمال أرخميدس الأصلية عن خواص مسبع الشكل فقدت، ولكن لحسن الحظ أن مخطوطة لثابت بن قرة في هذا الموضوع باللغة العربية حصل عليها الأستاذ كارل سكوي في مكتبة جامعة القاهرة، وترجمها إلى اللغة الألمانية عام 1929م".

لقد أبدع ثابت في الهندسة والجبر والأعداد المتحابة، والمربع السحري، وقد علق الدكتور "كارل فينك" بقوله: "لقد حاول بكل جدارة أن يبرهن الموضوعة الخامسة من موضوعات اقليدس التي لم تبرهن حتى الآن، فكان برهانه يدل على عبقريته لما فيه من العمق وخصب القريحة، وهذه الموضوعة تقول (إذا قطع قاطع مستقيمين، فكانت الزاويتان المحصورتان بين المستقيمين في إحدى جهتيه أقل من قائمتين، فالمستقيمان يلتقيان إذا مدا في كلتا الجهتين). ويضيف البروفسور "فلورين كاجوري" إن المسلمين قد بدأوا دراستهم في علم الهندسة من هندسة إقليدس، ولهذا فإن ثابت بن قرة لم يترك شيئًا من مؤلفات إقليدس إلا وترجمه وأضاف إليه معلومات جديدة.

hiragate.com

hiragate.com

علم التفاضل والتكامل

كان ثابن بن قرة من أوائل العلماء الذين اهتموا بالربط بين علم الجبر وبين علم الهندسة، وقد قدم حلولاً هندسية لبعض المعادلات التكعيبية. وتوصل إلى قانون لحساب الأعداد المتحابة، كما ذكرنا. كما تمكن من حساب حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافئ (محوره)، والطريقة التي اتبعها في ذلك (طريقة النهايات) وضعت العلوم الرياضية على عتبة اكتشاف حقائق علم التفاضل والتكامل (Calculus). وأسهم معه في هذا الفضل المفكر والرياضي الكبير أبو الوفاء البوزجاني (٣٨٧هـ/٩٨٨م)، وقد كان لهذا العلم تأثيره الملحوظ في تقدم الرياضيات والطبيعة في عصرنا الحاضر.

ولما كان هذا العلم (التفاضل والتكامل) وثيق الصلة بالتطورات التكنولوجية الخطيرة التي شهدها العالم في العصر الحديث، وعليه تعتمد العمليات الحسابية والمساحية وأساليب قياس الدقة العلمية والصناعية، فلا شك أن ثابت بن قرة من هذه الوجهة، يُعد واحدًا من العلماء الكبار الذين أسهموا بنصيب وافر في الحضارة البشرية المعاصرة. ومن الجدير بالذكر أن علماء الرياضيات في البلاد الغربية نسوا أن الأعداد المتحابة لعبت دورًا عظيمًا في الحضارة الإسلامية، وتوجد بكثرة في الكتابات العربية الرياضية.

ولا ننسى أن علم حساب المثلثات (Trigomnetry) يدين بوجوده لرياضي العرب، فهم أول من أقامه علمًا مستقلاً عن علم الفلك، بعد أن كان مجرد معلومات تخدم الفلك وأرصاده، وبفضل قوانين هذا العلم تقدمت بحوث الهندسة والمساحة والطبيعة. ولعل البيروني هو أول رواد هذا الفرع من الرياضيات، فقد وضع التحليلات المثلثة الزوايا مكان المربعة الزوايا لبطليموس، وأدخل خطوط التماس، ووضع النسب الحسابية المثلثية مستعينًا بما أسهم به قبله ثابت بن قرة والبوزجاني، وقد نقل إلى اللاتينية كتاب الشكل القطاع وكان له تأثيره في دراسات الأوربيين. كما كان للبتاني الفضل في تطوير هذا العلم لأنه استبدل بالمربعات المثلثات في حل المسائل، وبالقوس جيب الزاوية، وصاغ النسب الصياغة التي يستخدمها الرياضيون الآن.

كان ثابن بن قرة من أوائل العلماء الذين اهتموا بالربط بين علم الجبر وبين علم الهندسة، وقد قدم حلولاً هندسية لبعض المعادلات التكعيبية. وتوصل إلى قانون لحساب الأعداد المتحابة، كما تمكن من حساب حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافئ (محوره)، والطريقة التي اتبعها وضعت العلوم الرياضية على عتبة اكتشاف حقائق علم التفاضل والتكامل.

حراء

ثابت بن قرة الطبيب

كان ثابت بن قرة طبيبًا حاذقًا، حتى أنه تولى رئاسة بيمارستان بغداد الذي أسسه الخليفة المعتضد، والذي تولى رئاسته من بعده ولده سنان ثم حفيده ثابت، وكان ثابت أول من أدخل العلاج الجراحي في هذا المستشفى.

وينقل لنا قدري طوقان عن الطبيب المؤرخ "ابن أبي أصيبعة " واقعة تدل على براعة ثابت الطبية، وتستحق أن تروى، إذ كان ثابت قد اعتاد المرور يوميًا أمام حانوت أحد القصابين وشاهده مرارًا يرش قطع الكبد بالملح ويلتهمها، فأدرك أن الرجل ستصيبه علة معينة حددها ثابت بدقة، وأعد لها الدواء واحتفظ به معه طوال الوقت.

وذات يوم سقط القصاب مغشيًا عليه، فظن أهله أنه مات فانطلق صراخهم وعويلهم، لكن الطبيب المحنك أسرع إلى الرجل وأفاقه وأسعفه بالدواء .. وشاع بين أهل بغداد أن ثابت أحيا ميتًا، وبلغ الخبر الخليفة فاستدعى ثابتًا الذي شرح الأمر وأوضح له أنه عالج مريضًا ولم يحي ميتًا!

ومن هنا لم يكن غريبًا أن يقول ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء: "لم يكن في زمن ثابت بن قرة من يماثله في صناعة الطب ولا في غيره من جميع مباحث الفلسفة". ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

hiragate.com

أديب إبراهيم الدباغ*

البكَّاؤون والساهرون

عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "عينان لا تمسّهما النار؛ عين بكتْ من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله" (رواه الترمذي). قُدِّر لي يومًا أن ألتقي الرجل الذي كان رفيقًا لـ"فتح الله كولن" في ذهابه لأداء فريضة الحج، فقصَّ عليَّ الرجل ذكرياته عن فضيلته، ومن بعض ما قاله: "كنتُ محظوظًا بمصاحبتي لفضيلته، وبأن أكون في معيته ونحن نؤدي مناسك الحج في مكة المكرمة وفي زيارة الروضة الشريفة في المدينة المنورة، فخبرته عن قرب، وتعرفت على جوانب كثيرة من شخصيته. وليس شيئًا -كما تعلمون- كالسفر يمكن أن يسفر عن أخلاق الرجال، ويكشف عن خفايا النفوس، فكأني لم أكن أصحب آدميًّا دنيويًّا من لحم ودم، بل كأني بصحبة رجل أخروي ليس من أبناء هذه الدنيا في شيء، يذكرك النظر إليه بالآخرة وبجلال الله وجماله، وبكل ما هو سام وعالٍ من الأدب والخلق. ومن المشاهد المطبوعة في ذاكرتي، والمحفورة عميقًا في شغاف قلبي، والتي لا يمكِّن أن يمحوها الزمان، مشهد وقوفه على قبر الرسول ﷺ؛ إذ لم يكد يقف هذا الموقف المهيب ويشرع في السلام والدعاء حتى بدأت عيناه تصبان من الدموع ما تملأ زجاجة

إنَّ اغرورق العيون بالدموع خشوعًا وخشية، آية على أنَّ صاحبها ذو فضائية إيمانية عالية اليقين، فلا جرم -وهذا شأنها- أن تستدرَّ غزير الدموع من محاجر العيون اليابسة وتستثير الكثير من جيشانات الرحمة في القلوب القاسية.

عطر، بينما زفراته وتنهداته تُسمع في جنبات المسجد المبارك، وفجأة وعلى حين غرة، انشقت الصفوف عن رجل عملاق أسود البشرة -وأظنه من إخواننا الأفارقة- فإذا به ينشر كفيه ويمسح براحتيهما دموع فضيلته عن وجهه ثم يغسل وجهه بهذه الدموع متبركًا، وكما ظهر فجأة اختفى فجأة ولم نعثر له على أثر".

ولو تهيأ لنا أن نجمع هذه الدموع الطاهرة التي يذرفها البكّاؤون خوفًا من الله تعالى وشوقًا إليه، أن نجمعها في قوارير ثم نوقفها مشاعة لأصحاب القلوب القاسية والعيون اليابسة، فإنَّ قلوبهم لا شك سترقُّ، وعيونهم ستندى كأولئك الذين قضوا أعمارهم على ظهور الجياد في سبيل الله، فحملت سُرُجُ خيولهم من نقع المعارك وأتربتها وأغبرتها الشيء الكثير، حتى إنَّ بعضهم أوصى بأن يجمع هذا النقع ويوضع في قبره حين موته ليكون شفيعًا له عند بارئه.

إنَّ اغرورق العيون بالدموع خشوعًا وخشية، آية على أنَّ صاحبها ذو فضائية إيمانية عالية اليقين، فلا جرم -وهذا شأنها- أن تستدرَّ غزير الدموع من محاجر العيون اليابسة وتستثير الكثير من جيشانات الرحمة في القلوب القاسية، وهم المعنيون بالآية الكريمة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾(مريم:٥٨). وهذه هي "اللوعة" التي تحدث عنها "محمد إقبال" وعدَّ افتقاد الأفئدة منها آفة تسبب هموده الإيمان وخفوت جذوته، فلا شيء أخطر على الأمة وعلى وجودها الإيماني من ركود إيمانها وجموده بحيث يبقى بلا فعل ولا انفعال. فإذا افتقد أبناء الأمة هذه "اللوعة"، فإنه يخشى على الأمة أن تصاب بداء الأمم من قبلها كما حذرنا القرآن الكريم من ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(الحديد:١٦). فهؤلاء المعنيون بالآية الكريمة إذا حدَّقْت بهم وراقبت سلوكهم، وجَدتهم وجوهًا متوترة سجينة زمانها، وقعيدة لحظتها الراهنة، غير مهتمة بالآتي من الأزمان، يحركهم الضجر، ويتآكلهم السأم، غير معنيين بأيّة إدراكات روحية عالية، ولا يهمهم الهدف من الخلْق والوجود، ولا خلق الإنسان ووجوده في هذا الكون المهول السعة، والمخوف العمق والغور، إنهم في شدة من الإرهاق الروحي والتعب النفسي اللذين لا يعرفون لهما سببًا. وقد يبلغ بهم التأزّم الذهني إلى حد شعورهم بأنهم لم يعودوا ينفعون لشيء ولا شيء يمكن أن ينفعهم، فغموض أسباب هذا اليأس والقنوط يزيد في يأسهم وقنوطهم، ويفاقم تآكله في وجودهم وكيانهم، ولكونهم يفتقدون القوى الحيوية التي تفجرها فينا معاني الخلود، هذه المعاني التي تفوق كُلّ ما يمكن أن يمنحه لنا "العقل" من أسباب التشبث بالحياة، لذا يصعب على أمثال هؤلاء أن يعودوا من جديد للاستمساك بمحورهم الحياتي الذاتي، والعودة إلى أنفسهم بقوة وعزم وتفاؤل. وليس من همّي أن أجيب على أولئك الذين يسألون عن ثمرة هذا الإيمان بالخلود، فآثاره -لمنْ يبصر جيدًا- عميقة وشاملة لكل الكيان البشري، وحافز قوي ليقوم الإنسان بمهامه الإنسانية والإيمانية المنوطتين به من حيث كونه خليفة الله في أرضه. فإذا ما فعلوا ذلك، حين ذلك سيشعرون بأنَّ ينبوعًا من القوة يتفجَّر في ذواتهم فجأة، وأنهم عادوا نافعين ومنتفعين، وفاعلين ومنفعلين، وتتعزّز قوى الحواس عندهم، وتتفتح أبواب الخيال والبصيرة، وتتوضح رؤى العالم ورؤى ما وراء العالم، ويشعرون أنهم غائصون في فيض من الحب الأبدي الذي يستمطر منهم دموع الشوق والامتنان للرب الرحيم. ■

(*) كاتب وأديب / العراق.

hiragate.com

د. عبد الحميد الداودي*

الأسرة بين الشرع والواقع

لا يخفى أن الأسرة -بوصفها مؤسسة إعلامية و تربوية واجتماعية- كانت موقع اهتمام الناس منذ أمد طويل، وجعلت لها الشريعة موقعًا مركزيًّا ودورًا محوريًا.

المنهج بين "الذكورة" و"الأنوثة"

إن هذه الأسرة المكونة من عناصر متعددة ترجع في أصلها إلى عنصرين أساسين الذكر والأنثى. والأنوثة والذكورة من عطاء الربوبية، وهذه العطاءات منحة إلهية تستدعي معانقة المنحة الثانية، وهي المنهج الذي يحدد لهذين العنصرين الأساسين الوجهة المطلوبة، لإنجاز الفعل الحضاري في المكان والزمان المطلوبين، ولذلك تُساءل كل الأفكار التي جنحت إلى إلغاء إحدى المنحتين، من خلال إفرازات ما أنتجته الإلغاءات النمطية لإحدى المنحتين، يساءل هذا الفكر كذلك على مستوى إلغاء الذكورة أو إلغاء الأنوثة.

إن وأد الأنثى الحضاري وجعل الغلبة والهيمنة والتأطير الشامل والأحادي للذكورة، فكر منتقد، ومرفوض، وما زالت الشريعة تنكره وتعلي من شأن آخر هو شأن الإنسان. كما أن موجة إعلاء وهيمنة الأنوثة لها خطورتها حيث ألغت جانبًا مهمًا في الأسرة وفي التكوين الإنساني هو جانب الذكورة. ومن ثم كان لا بد من طرح سؤال جوهري ومنهجي:

ما هي المرجعية التي يمكن أن نستند إليها ولا يمكن أن تتهم بالانحياز للذكورة أو الأنوثة؟ هل من مصدر متجاوز للذكورة والأنوثة معًا لصالح مشترك بينهما هو الإنسان؟ إن الفكر العاقل والمنطق السليم يقتضي البحث عن هذه المرجعية. وتحاول البشرية في مختلف عصورها وعلى كل مستوياتها أن ترتقي إلى قانون وتشريع منهجي يتجاوز ضغط الأنوثة أو إكراه الذكورة، ولكنها لن تستطيع إلى ذلك سبيلاً، لأن الذي ينتج المؤطر لحركة الأنوثة والذكورة إما أن يكون ذكورًا فيطغى جانبهم الذكوري، وإما أن يكون مصدره مجموعة من النساء الناشطات، فيطغى جانب الأنوثة، ومن ثم ندور في حلقة مفرغة.

ولا سبيل لدى التفكير العاقل إلا طريق واحد هو إسناد الأمر إلى جهة محايدة: (إلى جهة راشدة فعلاً) من صلاحياتها وضع منهج يؤطر حركة العنصرين الأساسين الذكر والأنثى، ولا نملك في البحث عن هذه الجهة إلا مصدرًا واحدًا وهو الله ﷻ من خلال كتابه الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ، فيرتاح الإنسان ويطمئن إلى هذا المستند، ليس من باب الإيمان والعاطفة فقط بل هذا ما يقتضيه العقل وتَتبّع حركات التناقض الفكري عبر مختلف العصور.

إننا عندما ننادي البشرية كلها إلى أن تجعل كتاب ربها الذي خلقها وأن تجعل توضيح النبي ﷺ المتصل بالكتاب المبين، أن تجعل ذلك هو مصدر حركتها الفكرية، وإبداعها المعرفي، إننا نريد أن نضمن -والضامن هو الله تعالى دائمًا- للبشرية منهجًا تشريعيًا، وسدادًا فكريًّا، وإطارًا معرفيًّا يصلح لحركة الإنسان في أي زمان وفي أي مكان.

إن الإسلام باعتباره مصلحًا لكل زمان ومكان، مدعو الآن بلغة الإحصاءات، ولغة الأرقام، ولغة التأمل في عواقب أزمات الإنسان، إن الإسلام مدعو حضوره بقوة وبمنهجية.

أهل هذا الدين، وأهل هذا الحق المبين هم الممثلون القادرون على الحديث حديثًا إبداعيًا، حديثًا يعانق أزمات الإنسان واحتياجاته، لأجل أن ينيروا دربه

عندما ننادي البشرية كلها إلى أن تجعل كتاب ربها الذي خلقها وأن تجعل توضيح النبي ﷺ المتصل بالكتاب المبين، أن تجعل ذلك هو مصدر حركتها الفكرية، وإبداعها المعرفي، إننا نريد أن نضمن للبشرية منهجًا تشريعيًا، وسدادًا فكريًّا، وإطارًا معرفيًّا يصلح لحركة الإنسان في أي زمان وفي أي مكان.

من خلال التفكير المزدوج، عين تتعلق بالمرجعية حتى لا تزيغ، والعين الأخرى تتابع حركة الإنسان حتى يتم تنزيل النص الشرعي على الواقع المتحرك المعلوم.

بين القطعي والظني

إن العقل المسلم مطالب بأن يميز -وهو ينظر في الشريعة، في موضوعات المرأة والرجل والأسرة ومختلف القضايا ذات الصلة- بين الثوابت اليقينية، وقطعيات الدين، وبين الظنيات وتنزيلات البشر للقطعيات على الواقع المتحرك. ذلك لأن عدم التميز بين الأمرين قد يؤدي إلى خلل واضطراب في المفاهيم.

إن هناك قراءات معينة قد تمت عبر التاريخ لنصوص الدين المبثوثة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، الكثير من هذه القراءات لم تخل من تأثيرات الواقع الذي كان يتحرك فيه المتفاعل مع النص القرآني.

إن التمييز بين القطعي والظني أمر ضروري؛ هناك آيات قرآنية لها معنى واحد ولها حكم واحد، ولا سبيل إلى القول بغيره، لأنه أمر مقطوع به؛ فعندما نقرأ ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾(الروم:٢١) نفهم أن النص القرآني يبين أن ركيزة الأسرة الصالحة، قائمة على المودة والرحمة. إن هذه الحقيقة مؤكدة لأن النص القرآني هنا نص قطعي لا يحتمل غير ذلك.

إن مثل هذه القطعيات واليقينيات بمثابة الحركة الموحدة للأمة باختلاف تاريخها وجغرافيتها أمة واحدة منذ أن نزلت ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(العلق:١). الأمة الواحدة في هذا الاتجاه أمة موحدة على مستوى قيمة نشدان المودة والرحمة داخل الأسرة، ما دمنا أوفياء للقرآن وسنة رسول الله ﷺ.

إن العقل المسلم مطالب بأن يميز وهو ينظر في الشريعة، في موضوعات المرأة والرجل والأسرة بين الثوابت اليقينية، وقطعيات الدين، وبين الظنيات وتنزيلات البشر للقطعيات على الواقع المتحرك. ذلك لأن عدم التمييز بين الأمرين قد يؤدي إلى خلل واضطراب في المفاهيم.

الذي يؤسف له أن هناك اتجاهًا معينًا عبر تاريخنا الطويل بعد العصر الأول الذهبي عصر النبي ﷺ وعصر الصحابة الكرام رضي الله عنهم، هناك اتجاه إلى التنازل عن مكتسبات تحرير الإنسان، وجعل الإنسان مناط التكليف ذكرًا كان أو أنثى وكون الذكر والأنثى من خصائص النوع البشري، ولا علاقة لقيمة التفاضل على هذا الأساس. نأخذ على سبيل المثال ما ورد في فضل ذهاب المرأة إلى المسجد، تصلي مع الجماعة، هناك أحاديث صحيحة تبين اشتراك المرأة مع الرجال في صلاتين عظيمتين وهما صلاة العشاء وصلاة الفجر في المسجد مع الجماعة؛ رغم الظلمة[1]، هناك أزيد من عشرين حديثًا صحيحًا في موضوع ترغيب المرأة في الذهاب إلى المسجد[2] ولكن بعض الناس اعتمدوا على حديث واحد، حديث أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي الذي ورد فيه "وصلاتك في بيتك خير لك" وضحوا بعشرين حديثًا صحيحًا، هنا يتساءل العقل كيف تمت التضحية بأحاديث كثيرة عدد منها في صحيح البخاري ومسلم لصالح حديث واحد أو حديثين آخرين؟

هنا لا بد من العودة من جديد، وبهدوء، وبعمق، وبجرأة علينا أن نسائل الكثير من آراء فقهائنا ومفكرينا، لأنها آراء أقل ما يقال فيها أنها آراء ظنية. إذا كان النص حديث الآحاد ظني الورود مع كونه قطعي الدلالة مما يسمح بالاجتهاد كما هو مقرر عند علمائنا فإنه لا يحق لأي أحد أن يفرض على الناس التوجه إلى رأي واحد فقط من الآراء المتعددة.

إن النص القطعي في حد ذاته إذا نزلناه على الواقع لم يعد قطعيًا، ومن ثم سيتبين لنا أن تنزيلك لهذا النص، تطبيقك له لا يمكن أن يأخذ طابع القطعية لأنه عمل بشري، ممارسة بشرية ذلك أن التدين ينتمي إلى الظنيات وهو إحدى مجالات إعمال الاجتهاد.

التواصل بين الزوجين

لكي يتم تفعيل الأسرة تفعيلاً قويًّا لا بد من تواصل قوي يستند إلى مجموعة من القيم والضوابط، الناظمة لكل حياة طيبة، ويحتاج إلى حوار بناء وفعال قائم على أدوات متعددة منها ما هو حسي ومنها ما هو معنوي ومنه ما يرتبط بالثقافة الجنسية المتبادلة بين الزوجين.

المطلوب من الزوجين استعمال أدوات التواصل بشكل قوي وتوظيف ما أنعم الله عليهما من نعمة البصر والسمع ونعمة العقل ونعمة اللمس ونعمة الشم، وحينئذ سيتمكنان من فهم قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾(البقرة:٢٢٣).

إن التواصل بين الزوجين يبدأ بالكلمة، ويمر عبر القبلة واللمسة الحانية والسكينة الجنسية، لينتهي إلى إنتاج مشترك لأعظم شيء موجود هو هذا الإنسان، المتكون من نطفة من حيوان منوي، ومن بويضة، وتنقل هذه النطفة كل الخصائص المورثة من الأبوين معًا إلى هذا الناشئ الجديد.

الكلمة إذن هي منطلق التواصل بين الزوجين، ومن ثم وُجّهَا معًا إلى العناية المركزة بكل الألفاظ المتبادلة. المشكلة أننا في أسرنا لا نحرص على الكلمة، ولا نقدر تبعاتها ومقتضياتها، ألفنا بعضنا البعض ومن ثم قد نطلق الكلمة أو العبارة ولا نعير لهذا الأمر اهتمامًا كبيرًا.

في حين أن الأصل أن يكون الإنسان ذكيًا في اختيار كلماته وهو يتواصل مع أهل بيته، فرب كلمة رفعت صاحبها مقامًا عاليًا عند زوجته، ورب كلمة صدرت من الزوجة رفعت مكانتها عند زوجها مقامًا كبيرًا.

كم من كلمة قد لا يلتفت لها الزوجان يهوي بها أحدهما في نار الأزمة وقاع المشاكل بشكل خطير، وإنما الطلاق كلمة، وإنما السباب كلمة، وإنما الشتم كلمة، مما يدعو إلى الحرص على اختيار الكلمات والعبارات بكل عناية.

الإنسان مسؤول عن كل ما يتلفظ به فكل ما يلفظ به لديه رقيب عتيد. عندما يحرص الزوجان على اختيار

hiragate.com

كلماتهما بكل عناية ودقة يبينان أن كل واحد يعتبر الآخر وينظر إليه على أنه موجود ويستحق هذا الاختيار والجهد الذي يبذله كلاهما في هذا السياق.

قال الله ﷻ: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾(الإسراء:٥٣)، إن الحرص على الأحسنية في الكلمة والعبارة ينشئ تواصلاً قويًّا متينًا بين مختلف الأطراف وخاصة طرفا التواصل الأساسي: الزوجان.

إن الشيطان ينزغ بين الزوجين ويستغل بعض الكلمات يحولها إلى ألغام ليفجرها مباشرة أو بعد حين، وعندما يدرك الشيطان أن هذه الكلمات الجارحة غير كافية يؤز الزوجين على إضافة كلمات أخرى أكثر جرحًا وأكثر إيلامًا، حتى يتم تفجير العلاقة الزوجية، وتدميرها تدميرًا كليًّا، أو جزئيًّا.

ولذلك نحن مدعوون للقيام بجرد الحساب اليومي أو الأسبوعي أو الشهري على الأقل لعدد من الكلمات التي نتلفظ بها، حينئذ سندرك أننا جزء من الأزمة في كثير من المجالات، بفعل هذه الكلمات التي لم نختارها بعناية.

إن الكلمة، رسول التواصل بين الزوجين، تختار بعناية، لبناء العلاقات وتجسيدها لأن الأساليب الفظة الغليظة، مشوشة وحاجزة عن إيصال الحكمة والحق المبين وقد قال الله رب العالمين لسيد الخلق أجمعين: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾(آل عمران:١٥٩).

اقتران المحبة بالرحمة

الحب بين الزوجين أمر في غاية الأهمية يستدعي التفاكر والتذاكر ويتطلب تقويته بشكل مستمر، ويستحق الرعاية والصيانة لما فيه من بركات وثمرات هائلة.

ولقد كان رسول الله ﷺ يحدث عن خديجة ﵂، ويقول "إني رزقت حبها" (رواه مسلم) ولم يكن يرى بأسًا بالتصريح بذلك بل إنه يعلمنا نحن المسلمين كيف يجب أن نضع هذه الكلمة الجميلة "الحب" في إطارها الصحيح، وكان الصحابة ﵃ يتحدثون عن عائشة ﵂ ويقولون عنها حبيبة رسول الله ﷺ.

إن الحب الحقيقي يقود إلى تكاثف وتآزر وتعاون جميع أفراد الأسرة لتصبح هذه المؤسسة الصغيرة الناشئة نواة تتجمع حولها مجموعة من الأسر، وتتشكل من خلال ذلك كله فئة اجتماعية متميزة، تتفاعل إيجابيًّا ومؤسسة الرحم والجوار والصهر والقرابة.

ينشأ هذا الحب بين الزوجين منذ الانطلاقة الأولى التي يرغب فيها رجل بالاقتران بامرأة ما، ولذلك ندبت إليه الشريعة وحضت على النظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها "انظر إليها فإنه أحرى أن يُؤدَم بينكما" هذه النظرات الأولى المتبادلة ينبني عليها زمان طويل من الألفة والمحبة. سبحان الله الذي خلق الناس وجعلهم أصنافًا في أذواقهم واختيارتهم، ومن ثم كانت النظرة أداة تعبير عن مختلف الرغبات والميولات إنها النظرة المتبادلة بين رجل وامرأة على أساس الرغبة الصادقة في بناء أسرة رائعة، إنها أول خطوة في نشوء محبة تغرس جذورها من ينبوع القيم المشتركة، قيم الصدق والوفاء والعطاء والبذل والالتزام وتحمل المسؤولية والتعاون على البر والتقوى.

تنتعش هذه القيم بين عقلين، وقلبين، وجسمين، وروحين، ونفسين، حتى يصير هذان القلبان وهذان الجسمان وهذان الروحان وهاتان النفسيتان، يصير كل ذلك جسمًا واحدًا ونفسًا واحدة وروحًا واحدة وقلبًا واحدًا وعقلاً واحدًا.

قال الله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾(البقرة:١٨٧)، تحمل كلمة اللباس مجموعة من الوظائف والدلالات والأنوار والإضاءات والواجبات والمقتضيات، إن من معاني اللباس أن يستر صاحبه ويحميه ويجمل صاحبه ويزينه.

ولقد أظهرت المرأة في حياة النبي ﷺ أنها إنسان عظيم، في تثبيت زوجها فلقد قالت خديجة ﵂ للرسول ﷺ في اللحظات الأولى الصعبة من هذه المسؤولية الضخمة: "كلا أبشر فو الله لا يخزيك الله أبدًا إنك لتصل

hiragate.com

الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق" (رواه مسلم).

هذه المودة المشفوعة بالرحمة شرط أساس لاكتساب المناعة من خلال الحب بين الزوجين، إذ استطاعت أسر عديدة أن تنشئ أناسًا أقوياء بفعل هذه المحبة، رغم النقص في كثير من الحاجيات المادية، حيث تم تعويض هذا النقص المادي إلى حد ما عن طريق المحبة الداخلية التي أنشأت شبابًا لا يستسلم للظروف الصعبة بل أفلح في الانتقال من قدر الفقر إلى قدر الغنى، ومن قدر الحرمان إلى قدر التمتع بنعم الله تعالى الواسعة، وأصبحت أزماته ومحنه مشاريع لصياغة إنسان ممتاز، التحم بالمجتمع وعرف ألم الفقر والحرمان فأنشأ بدوره جيلاً جديدًا يتعظ من هذه المعاناة، ليصبح بركة على بلده وعلى أمته وعلى الإنسانية جمعاء.

إن الحب يحمي الزوجين من المعصية، إن هذه الخيانة تصدر عمن ينسى أن هناك من يحبه ويضحي من أجله. كيف يمكن لمحب أن يجرح حبيبه، أو يتجاهل مشاعره؟

إن الحب الحقيقي يقود إلى تكاثف وتآزر وتعاون جميع أفراد الأسرة لتصبح هذه المؤسسة الصغيرة الناشئة نواة تتجمع حولها مجموعة من الأسر، وتتشكل من خلال ذلك كله فئة اجتماعية متميزة، تتفاعل إيجابيًّا ومؤسسة الرحم والجوار والصهر والقرابة.

تذكر كتب السيرة أن النبي ﷺ كان إذا خلا إلى نسائه بسامًا ضحاكًا، وكان في مهنة أهله، وكان يتلطف مع نسائه، ويقول لأصحابه: "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي" (رواه الترميذي). ■

(*) كاتب وباحث / المغرب.

الهوامش

(١) عن عائشة قالت: "كن نساء المؤمنات يشهدن مع رسول الله ﷺ الفجر متلفعات (أي متلففات) بمروطهن (ثوب غير مخيط) ثم ينقلبن إلى بيوتهن حين يقضين الصلاة لا يعرفهن أحد من الغلس" (ظلمة آخر الليل بعد طلوع الفجر) (رواه البخاري).

(٢) عبد الحليم أبو شقة: تحرير المرأة في عصر الرسالة، ج ٢، ص ١٧٨ إلى ص ٢٠٢ ط الخامسة دار القلم ١٩٩٩.

اِحْزِمْ أمرك واخْتَرْ ما تريد..!

على جسر الاختبار واقفون،
وإلى جهتَيه ناظرون،
متردّدون، محتارون...
هنا؛ البراكين حِمَمًا تقذف،
وأجوافها نيران تتَسَعَّر...
وفي يمينك؛ آفاق زرق، وحقول خضر...
فما عليك سوى الاختيار،
وأنت على جسر الاختبار
أيَّ الجهتَين تختار...

***

رضا إبراهيم محمود*

الاضطرابات النفسية
وعلاقتها بالدوافع الإجرامية

مما لا شك فيه أن الاضطراب النفسي إن هو إلا نمط سيكولوجي أو سلوكي ينتج عن الشعور بالضيق أو العجز الذي يصيب الفرد، وهو لا يعد جزءًا من النمو الطبيعي للمهارات العقلية أو الثقافية، وقد تغيرت أساليب إدراك وفهم حالات الصحة النفسية على مر الأزمنة وعبر الثقافات، وما زالت هناك اختلافات في تصنيف الاضرابات النفسية وتعريفها وتقييمها، وذلك على الرغم من أن المعايير الإرشادية القياسية مقبولة على نطاق واسع في الوقت الحالي، كما يتم تصوير الاضطرابات النفسية على أنها اضطرابات في عصبونات الدماغ، من المرجح أن تكون ناتجة عن العمليات الارتقائية التي يشكلها التفاعل المعقد بين العوامل الوراثية أو التجارب الحياتية.

الجينات الوراثية ونمو العقل

من المعلوم أن الجينات المورثة للمرض العقلي أو النفسي يمكن أن تكون هي الجينات المسؤولة عن نمو العقل، والتي من المحتمل أن يكون لها نتائج مختلفة بناء على المحيط البيولوجي والبيئي، وقد ذكر أن أكثر من ثلث سكان العالم تعرضوا للإصابة بأحد الفئات الرئيسية من الأمراض النفسية في مرحلة ما من حياتهم، وكثيرًا ما يتم تفسير تلك الأسباب من خلال نموذج الاستعداد والضغط والنموذج الحيوي النفسي الاجتماعي، ويمكن أن يتلقى المصابون بأمراض نفسية الرعاية الصحية اللازمة في مستشفيات الأمراض النفسية أو في المجتمع أي خارج المصحات.

ويقوم الأطباء النفسيون أو الأخصائيون النفسيون الإكلينيكيون بتشخيص الأمراض النفسية بالاستعانة بعدة أساليب، وكثيرًا ما يعتمدون على الملاحظة وطرح الأسئلة في المقابلات التي تتم مع المرضى، ويقدم العلاج للأمراض النفسية الكثير من أخصائي الصحة النفسية، علمًا بأن العلاج النفسي وأدوية الأمراض النفسية خياران رئيسيان لعلاج المريض النفسي مثلهما مثل العلاج الاجتماعي ودعم الأصدقاء والمساعدة الذاتية. وفي بعض الحالات قد يكون هناك احتجاز إجباري للمريض أو علاج إجباري حسبما يسمح القانون بذلك، كما تزيد الوصمة الاجتماعية والتمييز ضد المرضى النفسيين من المعاناة الناجمة عن الاضطرابات النفسية، وقد أدت هذه السلبيات إلى الكثير من حملات الحركات الاجتماعية الداعية إلى تغيير تلك المفاهيم.

اختلافات نفسية بين المجرمين

أكدت إحدى الدراسات الأميركية أن هناك اختلافات نفسية ومعرفية وفكرية واضحة بين المجرمين الانفعاليين الذين يرتكبون جرائمهم تحت تأثير الغضب وفقدان السيطرة على النفس، وبين أولئك المجرمين الذين يخططون لجريمتهم بحذر ودهاء، وقد بينت تلك الدراسة أن المجرمين الانفعاليين لديهم مشاكل عقلية ومعرفية، وخاصة في ما يتعلق بالذكاء والقدرة على محاكمة الأمور، في حين لم يظهر المجرمون المحترفون أو الذين يرتكبون جرائمهم عن سبق الإصرار أي مشاكل عقلية أو فكرية أو معرفية.

وقد شملت الدراسة أكثر من سبعين سجينًا، وتم من خلالها تقييمهم بدقة، حيث قضى الباحثون ساعات معهم، وقاموا بإجراء اختبارات الذكاء والصحة النفسية والعصبية والذاكرة والانتباه، وكذلك المقدرة على تنفيذ المهام، وبينت نتائج تلك الدراسة أن معدل اضطرابات المزاج أو المشاكل النفسية كانت لدى المجرمين المحترفين الذين يخططون لجريمتهم ضعف المجرمين الانفعاليين الذين بدورهم كانوا يعانون أكثر من نقص في المقدرات الفكرية ومعدلات الذكاء.

علاوة على ذلك كان لدى الغالبية العظمى ٩٣ بالمائة من المجرمين الانفعاليين سوابق مثل الإدمان على الكحول وتعاطي المخدرات، وأشار الباحثون إلى أن الهدف من تلك الدراسة هو معرفة أكبر قدر ممكن عن طبيعة تفكير المجرمين ومشاكلهم النفسية والعصبية، والاضطرابات العقلية التي يعانون منها والتي تدفعهم لارتكاب الجرائم، لأن ذلك يساعد في الوقاية من حدوثها، بالإضافة لمساعدة المحاكم وزيادة معارف وإمكانيات القضاة وهيئات المحلفين حول دوافع المجرمين النفسية والعقلية لارتكاب مثل هذه الجرائم العنيفة.

وقد أشارت الدراسات إلى أن الجينات كثيرًا ما تلعب دورًا مهمًا في الإصابة بالاضطرابات النفسية، وذلك على الرغم من صعوبة إثبات وجود ارتباط بين جينات معينة وفئات بعينها من الاضطرابات، ويذكر كذلك أن للأحداث البيئية المحيطة بفترة الحمل والولادة دخل أيضًا في الإصابة بالاضطرابات النفسية، ويمكن أن تزيد إصابات الدماغ المرضية من خطر الإصابة باضطرابات نفسية محدده، وقد تم اكتشاف أن هناك ارتباطًا غير مؤكد بين الاضطرابات النفسية وأنواع معينة من العدوى الفيروسية، وإساءة استخدام العقاقير والصحة البدنية العامة.

اضطراب السيطرة على الدوافع

بات من الواضح أن الأشخاص غير القادرين على نحو غير سوي على مقاومة دوافع معينة أو محفزات يمكن أن تكون ضارة لهم أو لغيرهم، فيمكن تصنيفهم على أنهم يعانون من اضطراب السيطرة على الدوافع، والذي يتضمن أنواعًا متعددة من الاضطرابات الحركية اللاإرادية، مثل مرض السرقة أو اضطراب هوس إشعال الحرائق، هذا بالإضافة إلى أنه توجد أنواع متعددة من الإدمان السلوكي مثل الإدمان على القمار التي يمكن تصنيفها على أنها اضطراب، كما يمكن أن يتضمن اضطراب الوسواس القهري أحيانًا عدم القدرة على مقاومة أفعال معينة، ولكن يتم تصنيفه بشكل منفصل على أنه في المقام الأول اضطراب قلق.

hiragate.com

hiragate.com

فعندما يستمر تعاطي العقاقير بشكل قانوني أو غير قانوني على الرغم من وجود أضرار بالغة من الاستخدام يمكن تعريفه على أنه اضطراب نفسي ويسمى الاعتياد على المواد المخدرة أو تعاطي المواد المخدرة، وهي فئة أكبر من سوء استخدام العقاقير، ولا يستخدم الدليل التشخيصي والإحصائي للأمراض النفسية في الوقت الراهن مصطلح إدمان المخدرات، ويتحدث التصنيف الدولي للأمراض ببساطة عن التعاطي الضار، قد يكون الاستخدام المضطرب للمواد المخدرة راجع لنمط من الاستخدام القهري أو المتكرر للمخدر ينتج عنه تحمل لآثارها وأعراض انسحابها عندما يقل الاستخدام أو يتوقف.

أرقام حول الاضطراب النفسي

كشفت دراسة مفصلة في أوروبا أجريت في عام ٢٠٠٤م أن حوالي شخص من كل أربعة أشخاص تنطبق عليه أحد معايير الاضطرابات الموجودة في الدليل التشخيصي والإحصائي الرابع للاضطرابات النفسية في مرحلة ما من حياته، وقد تضمنت تلك الدراسة اضطرابات المزاج ١٣,٩ بالمائة، أو اضطرابات القلق ١٣,٦ بالمائة، أو اضطراب الكحول ٥,٢ بالمائة، وقد انطبق معيار تشخيصي واحد على شخص من كل عشرة أشخاص تقريبًا في غضون عام، وقد ظهرت المزيد من حالات الاضطراب في النساء والشباب من كلا الجنسين، كما كشفت مراجعة أجريت في عام ٢٠٠٥م لمجموعة من المسوح العلمية في ١٦ دولة أوروبية أن ٢٧ بالمائة من البالغين في هذه الدول يعانون من أحد أنواع الاضطراب النفسي على الأقل خلال فترة لا تتجاوز العام.

الضيق والعجز يستدعيان العلاج

تتداخل المفاهيم الإكلينيكية للمرض النفسي مع القيم الشخصية والثقافية في مجال الأخلاق بقدر كبير، لدرجة أنه في بعض الأحيان يقال إنه من المستحيل الفصل بين الاثنين، دون إعادة تعريف ماهية أن تكون شخص بعينه في مجتمع ما في الطب النفسي الإكلينيكي. يشير

الاضطراب النفسي إن هو إلا نمط سيكولوجي أو سلوكي ينتج عن الشعور بالضيق أو العجز الذي يصيب الفرد، وهو لا يعد جزءًا من النمو الطبيعي للمهارات العقلية أو الثقافية، وقد تغيرت أساليب إدراك وفهم حالات الصحة النفسية على مر الأزمنة وعبر الثقافات.

الشعور المستمر بالضيق والعجز إلى وجود اضطراب داخلي يستدعي العلاج، ولكن في سياق آخر يمكن أن ينظر إلى شعور الضيق والعجز نفسه على أنه مؤشر على وجود صراع عاطفي، وحاجة إلى التعامل مع المشاكل الاجتماعية والبنيوية.

وقد أدى هذا الانقسام إلى قيام بعض الأكاديميين والأخصائيين الإكلينكيين بتأييد مفهوم ما بعد الحداثة عن الكرب النفسي والصحة النفسية، إذ إن مثل هذه المناهج إلى جانب علم النفس عبر الثقافي ركزت على خبرات وهويات قائمة على الجنس والعرق والثقافة البديلة، وقد وقفت في وضع مغاير لموقف مجتمع الطب النفسي السائد الذي يتجنب دائمًا التعامل مع الأخلاق أو الثقافة. وهناك محاولات في العديد من الدول للوقوف في وجه التعصب الواضح ضد جماعات الأقلية، بما في ذلك العنصرية المؤسسية داخل مراكز خدمات الطب النفسي.

المرضى النفسيون هم الضحايا

لقد ظهر أن عامة الناس لديهم صورة نمطية راسخة عن خطورة الأشخاص الذين يتم وصفهم على أنهم مختلون عقليًا، والرغبة في البعد الاجتماعي عنهم. وكشف مسح علمي أجري في الولايات المتحدة الأمريكية عن أن نسبة كبيرة من الناس تعتقد أن الأفراد الذين تظهر عليهم أعراض الاضطراب النفسي، من المحتمل أن يتصرفوا بعنف تجاه الآخرين. وهي نسبة أكبر إذا ما تم مقارنتها بنسبة الناس الذين يعتبرون مثل هؤلاء الأفراد مضطربين، وذلك على الرغم من اختلاف الرأي العام أو رأي وسائل الإعلام حولهم. كما أن

hiragate.com

الدراسات الوطنية أشارت إلى أن المرض النفسي الحاد لا يعني بالضرورة صدور سلوك عنيف في المستقبل من المريض النفسي، وهو في المعتاد لا يشكل سببًا رئيسيًا من أسباب العنف في المجتمعات.

هناك علاقة إحصائية بين المرض النفسي والعوامل المختلفة التي ترتبط بالعنف عند أي شخص، وعلى سبيل المثال تعاطي المواد المخدرة بالإضافة إلى العديد من العوامل الشخصية والاجتماعية والاقتصادية، كما تشير نتائج الأبحاث باستمرار إلى أن الأشخاص المصابين بمرض نفسي أو عقلي حاد ويعيشون في المجتمع سيكونون هم الضحايا لأعمال العنف لا مرتكبيها.

المريض النفسي أقل مصداقية

في دراسة عن الأشخاص الذين تم تشخيص حالتهم على أنها مرض نفسي حاد ويعيشون في قلب المدن الأمريكية، أشارت النتائج إلى أن ربع هؤلاء كانوا ضحايا لجريمة عنف واحدة على الأقل على مدار عام، وهي تعتبر نسبة أعلى ١١ مرة من متوسط معدل الجرائم التي يتعرض لها الفرد في مراكز المدن وأعلى من كل فئات الجرائم، بما في ذلك الاعتداءات العنيفة والسرقة. ومع ذلك فإن الأشخاص الذين يعانون من أمراض نفسية أو عقلية يمكن أن يجدوا صعوبة أكبر من غيرهم في ضمان إقامة دعاوى قضائية ضد من اعتدوا عليهم؛ ويرجع ذلك جزئيًا إلى التحيز ضدهم والنظر إليهم على أنهم أقل مصداقية وأقل ثقة. وعلى الرغم من ذلك فإن هناك تشخيصات محدده مثل اضطراب السلوك في الطفولة، أو اضطراب الشخصية المعادية للمجتمع عند الراشدين أو الاضطراب النفسي.

وهي اضطرابات تم تحديدها أو ربطها بالمشاكل السلوكية والعنف، وتوجد نتائج متضاربة حول مدى ارتباط أعراض معينة لاضطرابات بعينها بزيادة احتمالات حدوث أعمال عنف شديد في المتوسط. ومن أمثلة تلك الاضطرابات بعض أنواع الهلاوس أو الأوهام التي يمكن أن تحدث في صورة اضطرابات، مثل الفصام أو الاضطراب التوهمي أو اضطراب المزاج، إلا أنه قد وجد باستمرار أن أغلبية العوامل الوسيطة المؤدية لأعمال العنف تكون في الغالب عوامل اجتماعية ديموغرافية واجتماعية اقتصادية، مثل أن يكون الشخص صغير السن وذكر، أو أن تكون الحالة الاجتماعية والاقتصادية للفرد متدنية للغاية وخاصة مع تعاطي المواد المخدرة بما في ذلك إدمان الكحوليات، وكلها عوامل يمكن أن يكون بعض الناس أكثر عرضة لها.

وتجدر الإشارة إلى أن القضايا المهمة والأكثر شهرة أدت إلى الخوف من أن الجرائم الخطيرة مثل القتل قد زادت بسبب التحرر من المؤسسات، ولكن الأدلة والبراهين لا تدعم هذا الاستنتاج أن أعمال العنف التي تقع، والتي لها علاقة بالاضطراب النفسي ضد المختل عقليًا أو الصادرة عنه تحدث عادة في سياق التفاعلات الاجتماعية المعقدة، وكثيرًا ما تكون في محيط الأسرة وليس بين الغرباء. كما أن أعمال العنف باتت تمثل مشكلة أيضًا في أماكن الرعاية الصحية وفي المجتمع بوجه عام. ■

(*) كاتب وباحث / مصر.

المصادر

(١) الإرشاد النفسي، د. عبد الرحمن العيسوي، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية ١٩٩٠م.

(٢) أسس بناء القيم الخلقية في مرحلة الطفولة، أميرة الديب، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٢م.

(٣) الأمراض النفسية في سؤال وجواب، د. لطفي الشربيني، دار النهضة، بيروت ١٩٩٥م.

(٤) الاكتئاب النفسي مرض العصر، د. لطفي الشربيني، المركز العربي، الإسكندرية ١٩٩١م.

(٥) علم النفس والجريمة، محمد حسن غانم، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة ٢٠٠٨م.

(٦) الاتجاهات النظرية في دراسة الجريمة والانحراف، د. عبد العاطي فرج علي، مجلة العلوم الاجتماعية ٩ / ٢٠١٣م.

(٧) http://www.ask.com/question/what-is-criminal behavior.

(٨) http://annabaa.org/nba٥٢/selook.htm.

(٩) http://www.csun.edu/~hcchs١٦/٠٠٦.html.

(١٠) http://en.wikipedia.org/wiki/Crime.

hiragate.com

آلبتوغ إمام أوغلو*

حوار مع ورقة

لو تصورنا أن جميع النباتات على وجه اليابسة عديمة الأوراق، فكيف تبدو الأرض أمامنا يا ترى؟ مخيفة أليس كذلك؟ ولو تصورنا الأمر كذلك من الناحية البيولوجية والأيكولوجية، فماذا نرى؟ نرى بكل تأكيد أرضًا لا تصلح للعيش والحياة أبدًا. نعم، إن الورقة التي لا نعيرها اهتمامًا في غالب الأحيان ونمر عليها مرار الكرام لكثرتها، لها -في حقيقة الأمر- قيمة لا يُستغنى عنها بالنسبة للمخلوقات كافة.

إذن، ما الحكمة من خَلق هذه الورقة؟ ما قيمتها وما دورها في هذه الحياة؟ ولماذا توجد بكثرة على وجه الأرض؟

أسئلة عديدة تجيب عنها الورقة بنفسها من خلال حوار أجراه معها الإنسان؟ تشرح لنا ماهيتها وطبيعتها، وتكشف عن خفاياها المكنونة فيها؛ لتُدخِلنا عالم التفكير والتأمل الذي ينتهي بنا إلى معرفة القدرة العظيمة المخفية في ثنايا كل مخلوق.

وهل الورقة تحكي؟ نعم، إن كل مخلوق في هذا الكون يحكي بلسان حاله قصتَه والمهمة التي كُلِّف بها في هذه الحياة الفانية.. والآن هلمّ عزيزي القارئ لنسمع إلى هذا الحوار ونحاول الاستفادة منه قدر الإمكان.

الإنسان: مرحبًا أيتها الورقة.. هلاّ تحدّثتِ لنا عن نفسك قليلاً؟

الورقة: أهلاً وسهلاً.. اسمي الورقة، وأنا جزء أساسي من النباتات، إذ أُوجَد على أطراف براعم النباتات ما عدا الفُطر والطحالب. لقد وهبني ربي قدرة استعادة تبادل الغاز العادي مع الغلاف الجوي، كما خلقني بتصاميم عجيبة متنوعة الأشكال والأحجام، ثم كلّفني بعملية التركيب أو التمثيل الضوئي.

وأما الثغور الدقيقة الموجودة على بشرتي، فهي المكلّفة بتأمين ثاني أكسيد الكربون من الهواء اللازم للتركيب الضوئي لتوفير الحرارة والماء؛ وهذه الثقوب الدقيقة المسماة بـ"المسامات"، تملك موهبة الانفتاح والانغلاق إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك. فبخار الماء والأكسيجين اللذان أقوم بإنتاجهما عن طريق التركيب الضوئي، يتم تحويلهما -عند انفتاح المسامات- إلى ثاني أكسيد الكربون اللازم لعملية التركيب الضوئي أيضًا، وبذلك يتم طرح الإنتاج الزائد من الفضلات خارجًا لتستفيد منها الأحياء الأخرى. وقد أقوم بامتصاص المواد التي أحتاجها من أجل البقاء على قيد الحياة، لأني -كواحدة من المخلوقات- أنا أيضًا أتغذى وأنمو، وحين ينقضي أجلي أموت وأبلى.

الإنسان: كيف تتم ولادتك؟

الورقة: أمرّ من مراحل مليئة بالأسرار إلى حين ولادتي. أولاً وقبل أن أُولد، يجب أن أتغذى جيدًا، تمامًا مثلما يتغذى الجنين في رحم أمه. لهذا، سخّر لي ربي الطاقة الشمسية، وثاني أكسيد الكربون، ومواد الغذاء في التربة والماء. نعم، أحتاج إلى أشعة الشمس الدافئة اللطيفة، وإلى الماء، كي أستطيع الخروج من البرعم في فصل الربيع. وأنتم تعرفون هذه العملية بـ"نمو الورقة". وهناك جزء يسمى "برعم الورقة" مكلَّف برعايتي إلى حين ولادتي وتفتُّحي عندما يحين الأوان، وهو مثل الأم لي وللبراعم المتموضعة إلى جواري على الغصن. ومن تجليات اسمي "الرحمن" و"المدبر"، فقد أمدّني ربي بموهبة تخزين المواد الغذائية داخل جذعي لسنة كاملة، فأتمكّن بهذه العملية من تخزين غذاء للاحتياط، وهذا يطمئنني عندما لا أستطيع تأمين الغذاء والماء بالقدر الكافي من التربة في تلك السنة، فلا أقلق ولا أخشى. إنه أمر يشبه عملية اختزان الدهون والغليكوجين في أجسامكم أنتم البشر، وذلك احتياطًا عندما لا تجدون شيئًا تتغذون عليه. ومن أجل ذلك، يُلاحَظ في فصل الربيع، دوران كبير للمواد والطاقة في جذوع النباتات المعمِّرة.

الإنسان: وهل ندرك ذلك نحن البشر؟

الورقة: طبعًا تدركون.. مثلاً، إذا قطعتم -في فصل الربيع- جذع شجرة "الزان" قبل تفتّح براعمها، فسوف ترون -بعد فترة- تفتُّح براعمها وتزيّنَها بالأوراق كاملة، والفضل يعود إلى المواد الغذائية المخزَّنة احتياطيًّا في جذع هذه الشجرة.

يعدّ الغصن الذي أتموضع عليه، بمثابة عضو يساعدني على التفتّح والانبثاق من البرعم، وبالتالي توجيه سطحي نحو الضوء. وقد يوجد داخل هذا العضو حُزَم كثيرة من الأنابيب؛ تنقل إلينا النسغَ والمعادن الموجودة في التربة.

وإذا تفحصتم سطحي بدقة فسوف ترون وجود خطوط نقل كثيرة تشبه نظام الدورة الدموية في أجسامكم. أما وظيفة هذه الخطوط فهي توزيع النسغ الغني بالمواد الغذائية العضوية واللاعضوية -التي تصلني عبر الغصن الذي يحملني- إلى كل أطراف جسمي. وقد تتم عملية النقل عبر حزم الأنابيب هذه الموجودة داخل العروق.

حين ننبثق -نحن الأوراق- من براعمنا؛ ترون الاختلافات في أشكالنا، وألواننا، وأشكال حوافّنا، وعدد عروقنا، ومساحات سطوحنا.. تمامًا مثل تنوعكم -أنتم البشر- بالطول والوزن والشكل والملامح والشخصية.

نتوزع إلى ثلاث مجموعات رئيسية؛ الأوراق الإبَرية، والأوراق الحرشفية، والأوراق المسطحة العريضة.

hiragate.com

والغريب في الأمر أننا رغم انبثاقنا من برعم واحد، نتحلى بأشكال هندسية مختلفة عن بعضها البعض، تمامًا مثل التوائم الأخوية غير المتشابهة.

عندما كانت الورقة تتحدث عن خلقتها العجيبة، تعلَّق نظر الإنسان بحوافّ الأوراق الخضراء التي تبدو وكأنها قطع بديعة موشّاة بالدانتلاّ؛ بعضها ملساء، وبعضها متزينة بالتواءات ونتوءات عجيبة، وبعضها الآخر أحيطت بالشوك.. فأخذ الإنسان يفكر ويتساءل عن الحكمة في ذلك! فكّر أنّ ذلك ربما كان لحكمة أيكولوجية ليس لها تفسير.. وفي نهاية المطاف خلص إلى أن كل هذا التنوع لا يمكن أن يكون إلا بقدرة قادر واحد خلق من اللاشيء كل شيء.

لاحظت الورقة شرود الإنسان في التفكير، رفعت صوتها قليلاً واستطردت في الكلام:

نعم يا صاح؛ إنَّ خلْقنا في أشكال متنوعة أمرٌ مهم للغاية؛ فقد وُهِبنا هذا التنوع ليصبح التعريف بخصائصنا ممكنًا. حين ترون -مثلاً- الأشجار ذات الأوراق الإبَرية، سرعان ما تطلقون عليها اسم "الصنوبر"، ولكن هناك أيضًا شجرة البيسية، والتنوب، والأرز، تنتمي إلى نفس المجموعة التي تنتسب إليها شجرة الصنوبر، ولكن كلها تختلف اختلافًا كبيرًا عن بعضها البعض.

لقد خلق الخالق العظيم الأحياء ووهبهم القدرة على التأقلم مع الظروف الصعبة للبقاء على قيد الحياة والحفاظ على النسل.

وإليك سرًّا آخر لهذا التنوع: في الوقت الذي تكون فيه أوراق الأغصان المنخفضة لشجرة البَهْشيّة، قاسية وشائكة، نرى الأوراق على أغصانها العالية ملساء طرية بلا أشواك، وبذلك تكون هذه الشجرة قد حَمَتْ نفسها من الحيوانات العاشبة بسياج وَرَقي طبيعي. إليك مثالاً آخر: ثمة أوراق في عالمنا تُعرَف بـ"أوراق الظل" و"أوراق الضوء" يختلف تركيبها الداخلي عن الخارجي بشكل بارز، وبالتالي يمكن أن يوجد كلا هذين النوعين الأوراق على نفس النبات، ولكن رغم اختلاف تركيبهما وطبيعتهما نراهما على النباتات العشبية تقوم دورَ أوراق الظل تارة، ودور أوراق الضوء تارة أخرى.

هذا وقد مُنحتْ أوراق الظل قدرة القيام بعملية التمثيل الضوئي -حتى وإن كان الضوء خافتًا- لكي يتم تجاوز احتمال انخفاض التمثيل الضوئي الذي قد ينجم عن انخفاض الضوء، وذلك بفضل التغيرات التي تقع في تركيب أعضاء التركيب الضوئي.

إن بعض الأنواع النباتية كـ"دالية العنب"، تحمل نوعين من الأوراق؛ لذا خُلِق بعضها بسطح عريض ولديها القدرة على القيام بعملية التركيب الضوئي لتجميع الجلوكوز، وخُلِق بعضها الآخر بميزة التسلق والالتفاف على شيء لحمْل عناقيد العنب إلى الأعلى؛ حيث يلتف هذا النوع من النباتات ذات الجذوع الواهنة العاجزة عن الانتصاب، على عمود ويتسلق، ليحمل الأوراق العريضة القادرة على إنتاج التركيب الضوئي إلى ارتفاع ملائم تلتقط خلاله الضوء بسهولة.

والجدير بالذكر أن هذه الداليات التي تبحث دائمًا عن مكان تلفّ عليه جذوعها الواهنة الضعيفة، قادرة على الدوران بزاوية ٣٦٠ درجة، وإنها تجد ما ستلتف عليه في بضع دقائق فقط، وخلال ٢٠ ثانية تشرع بالالتفاف والتمسك.

ازدادت بشَرة الورقة تألّقًا وإشراقًا باعتقاد أنها كشفت عمّا في ثناياها من عجائب، وقدّمتْ إلى الإنسان المعلومات الكافية التي تدفعه إلى التفكير والتأمل في خلق السماوات والأرض.

إننا بمثابة لوحة فنية منقوشة على أغصان آلاف الأنواع من النباتات، وإنَّ خلقنا بأشكال متنوعة وصور في غاية الانتظام والدقة والجمال، وإنَّ نوالَ المخلوقات الأخرى الحياة من خلالنا، وتعزيزَ الأغصان بعشرات آلاف البراعم بميزات عديدة، واصطفافَنا فوق الأغصان بمسافات محسوبة، وإنتاجَنا موادًّا غذائية للأحياء الأخرى عبر غاز خانق.. لهي جميعًا حقائق واضحة كوضوح الشمس تشير إلى صاحبها الواحد الأحد لا مناص. ■

(*) كاتب وباحث / تركيا. الترجمة عن التركية: محمد مراد.

hiragate.com

د. حسن الأمراني*

أحبك فاشهد عليَّ

حملْـــتُ رحـــالـــي إليـــك
وألقيـت حِمْـــليَ بيـــن يديـك
جعلت اعتماديَ، كلَّ اعتمادي عليك
وجـــــــدت لديـــــــك
أَعَـــزَّ مـــلاذٍ وأنضَـــرَ أيـــكْ
لقـــــد ســـبَقَتني عطايـــاكَ
أعطيـــتَ قبـــل ســـؤالكْ
أفضْـــتَ علـــيَّ جميـــل نـــوالْك
فمـا يرغـبُ القَلْـــبُ إلا إلـــيْك
وتهتـفُ روحـــيَ بيـــن البريَّـــةِ
إنَـــي أحبّـــكَ فاشـــهدْ علـــيّ
إذا النّفْـــسُ جاشـــتْ إلـــيّ
أقـــــول: اصْـــــبري، واتبعينـي
فـــسوف تنالينَ عنـــد الحبيـــبِ
مـــرادكِ قبـــل انصـــرام العشـيّ
إلـــهيَ، مـــن كلماتـــك أغـــرفُ
هـــل عطـــشُ الـــروح يلقـــى
ســـوى كلماتـــكَ أعـــذبَ ريّ؟
فيـــا سائـــقَ الظَّـــعْـنِ هـــوّنْ عليـك
مـــــرادك فـــــي راحتيـــــك
وخلقـــك ربـــــي عيالـــك
هـــل يأثـــم القلـــبُ إن مـــال
نحـــــو أحـــــبِّ عيـــــالك؟

(*) رئيس تحرير مجلة المشكاة / المغرب.

ميمون قرمون*

> إن القويّ والمنتصر الحق، من قَوي على نفسه وانتصر عليها، أما الأرواح الشقية التي لم تتخلص من أسر النفس ورغباتها القاتلة، فهي مهزومة حتى لو فتحت العوالم كافة. فلو دانت لمثل هؤلاء الأرضُ كلها، لا يمكن أن يُسمَّى ذلك فتحًا.
>
> الموازين

إحياء لغة الروح

عند الأستاذ فتح الله كولن

يقتضي هذا الموضوع في البداية تعرف دلالة الروح لغة واصطلاحًا، قصد معرفة أوجه الاختلاف أو التشابه بين اللفظ في مصدريه السابقين، وبين توظيفه عند محمد فتح الله كولن، لذا يمكن القول: إن الروح من الألفاظ التي خاض الناس في تعريفها وبيان طبيعتها، وتخبط الفلاسفة في تحديد ماهيتها والوقوف على حقيقتها، وهي في النهاية من المعاني التي استأثر الله بعلمها، ولم يجعل للإنسان سبيلاً إلى معرفتها، يقول ﷻ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(الإسراء:٨٥).

وتخبرنا معاجم اللغة العربية عن مادة "روح" بأنها "أصل كبير مطرد، يدل على سعة وفسحة واطراد أما اصطلاحًا فهناك تعدد في التعريف وأهمها: "الروح جسم لطيف، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم". وبالرجوع إلى القرآن الكريم نجده قد ذكر لفظ الروح في أكثر من سياق ليفيد بها معاني مختلفة منها: الحياة، ملك من الملائكة، الوحي، القرآن، جبريل، النصر، الرحمة، الراحة من الدنيا، القدرة الإلهية على الخلق.

فالمهم في هذا السياق أن ندرك أن معرفة حقيقة "الروح" ليس لأحد من سبيل إليها، بل هي مما اختص

إن بعث لغة الروح من جديد يعني استنهاض مواتها من تحت التراب، لكونها كادت تغيب في هذا العصر القاتم، عصر الرقمنة والإنسان الآلي.

الله سبحانه بعلمها. ولعل الحكمة من إخفاء علمها عن المخلوقات، هي أن يتأمل الإنسان ويتحقق من أن الروح التي جعل الله بها الحياة والراحة والقوة والقدرة والحس والحركة والفهم والفكر والسمع والبصر... هي من أمر الله، والإنسان يباشرها ويعايشها مدة حياته وطول عمره. فمن خلال المعاني القرآنية والدلالات اللغوية والاصطلاحية يستمد فتح الله كولن مادته الروحية، خاصة وهو يتحدث عن الانبعاث المرتبط بالحياة والمقيد بالتأمل والتبصر في آيات الكون بقلب مرهف وحس لطيف وحركة من الماضي إلى الحاضر في اتجاه بناء المستقبل الحضاري للأمة.

انبعاث الأمة من جديد

إن القارئ لمؤلفات الشيخ والواعظ والمفكر محمد فتح الله كولن، يستشعر غاية أسمى يسعى إلى بلوغها هذا الرجل، ألا وهي بعث الأمة من جديد عن طريق إحياء جانبها الروحي، بمعنى إحياء طاقة مغمورة عتيقة كان لها وجود سابق لكن سرعان ما انطفأ وميضها. ففي هذا السياق يقول: "عندما لا يحترق القلب شوقًا، والروح عذابًا، والذهن همًّا فلا تتكلم! وإلا فلن تجد أحدًا يصغي إليك" فهنا تجلي واضح في ارتباط التغيير والإصلاح والوعظ والتنبيه والتواصل الكوني عامة، بباطن الروح من حيث الإرادة والصبر والإحساس.

إن بعث لغة الروح من جديد يعني استنهاض مواتها من تحت التراب، لكونها كادت تغيب في هذا العصر القاتم، عصر الرقمنة والإنسان الآلي، عصر التكنولوجيا ومخلفات الثورة الإلكترونية على إرادة الإنسان من حيث اغترابه وسلب إرادته واستهدافه بغزو فكري ثقافي يأتي على الهوية بما فيها: الدين واللغة والعادات ونمط العيش والحضارة.

فالملاحظ أن الساحة الفكرية المعاصرة تعيش زخمًا فكريًا، بل تراكمًا معرفيًا أساسه العرض والتسويق قصد التكسب وبلوغ الشهرة الجوفاء، مما انعكس سلبًا على القضايا الفكرية لكونها تفتقد إلى العمق الروحي والوجداني الذي يربط الصلة ويشد الوثاق بين القارئ العاشق المتلهف، والجائع الظمآن وبين القضية الفكرية المدروسة التي ينبغي أن تحمل رسالة تغذي الروح لا سهمًا جارحًا يثخن الروح بضربات العقم والجفاء، يقول كولن في هذا الموضوع: "إن رقيّ أيّ أمة وتقدمَها مرتبط بمدى التربية التي يتلقاها أفرادها من الناحية العاطفية والفكرية. فلا يُنتظر تقدم أمة لم تتوسع آفاق أفرادها الفكريةُ والوجدانية". فتركيز كولن على لغة الروح دفعت إليه طبيعة المتلقي المعاصر الذي يعيش صراعًا داخليًّا وشرخًا نفسيًّا بين ثوابت الهوية وجديد العالمية، فهو يهتم بشؤون الإنسان الفكرية والروحية واضعًا الأصبع على مكامن مرض القلوب البشرية، ليعطي انطلاقة فتوحات عميقة في مجاهل القلب والروح والفكر. لذا فهو يربط لغة الروح بالإيمان الموصل للبقاء، الإيمان بأن الذات الإنسانية كتاب مفتوح، بل بحر واسع وعالم كامل وكون عظيم يجب قراءته والتأمل فيه وفك رموزه من خلال النظر وعمق الفهم والإدراك، ومن ثمة فهي وسيلة القراءة الدقيقة في الإنسان والكون والحياة.

إحياء الروح عند الأستاذ كولن

إن استحضار الجانب الروحي عند كولن هو ما يمليه عليه الفكر الناضج الذي يعبر عنه في المتون والمقالات والمؤلفات، والذي يؤدي إلى تناسل نصوص جديدة نظرًا لتعدد قراءات وتأويلات القراء ضمن ما يعرف بنظرية التلقي، لأنه يفتح في هذه النصوص أبوابًا على العقل والقلب والضمير تاركًا الحرية للقارئ في استنطاق الدلالات وكشف الرسالات.

فالحديث عن لغة الروح عند كولن، يعني تجديد الإيمان وطلب المعرفة ونشر المحبة قصد بناء الجيل الحاضر لتحقيق مفهوم الانبعاث من جديد -بعد الوقوف على الأزمات والمعضلات المعرقلة لبناء الفكر الإسلامي- هذا الهدف السامي يعده لبنة أساسية في الفكر الإصلاحي الحديث، لذا نجده يركز قبل كل شيء على إصلاح الإنسان / الفرد الشخص، وهو

hiragate.com

بهذا يختلف عن الحركات الإصلاحية التي دعت إلى إصلاح المؤسسة قبل إصلاح الفرد، لكونه يرى أن إصلاح الفرد وتربيته وتزكيته وبنائه على مستوى القيم والأخلاق سيؤدي مباشرة إلى إصلاح المؤسسة التي يوجد بها سواء كانت أسرة، مدرسة، مجتمع.

فالباحث في مؤلفاته التي تتجاوز الستين كتابًا يستشف نفسًا مفهوميًا إصلاحيًا من ألفاظه: بعث الروح، الانبعاث الحضاري، بعث الجيل، بناء الإنسان، التواصل، المحبة، التصفية، الإيمان والمعرفة، العودة إلى الروح، التأمل والتفكر في الكون والوجود، بناء الجيل الحاضر، البعث والنهوض والارتقاء، تجديد الذات، حرية الفكر، بلوغ ذروة العشق، وراثة الأرض، الأخذ بالعلم الحديث، كمالية الإيمان، الحوار، التسامح.

وبالرجوع إلى كتابه "ونحن نقيم صرح الروح" نكتشف رصيدًا معرفيًا وتوجيهًا نيرًا وصريحًا في موضوع لغة الروح الفردية والجماعية، من خلال تركيزه على العالم الإسلامي التواق إلى الانبعاث بعد الموت وإلى الولادة من جديد، لكي يحقق تجددًا وانبعاثًا وإحياء يشمل الحياة كلها، فكولن هنا يلتقي مع شعراء الحداثة العرب (أدونيس، خليل حاوي، بدر شاكر السياب، عبد الوهاب البياتي...) فيما يخص ثنائية الغربة والضياع وثنائية الحياة والموت التي تعيشها الأمة العربية، هذه المضامين النفسية التي ترتبت عن نكبة فلسطين ١٩٤٨م ونكستها ١٩٦٧م، أي لحظات الخيبة واليأس والموت الذي عاشه المجتمع العربي، مما دفع الشعراء إلى تأكيد إمكانية الحياة بعد الموت من خلال مفهومي التجدد والانبعاث القائم على توظيف الأسطورة والرمز والانزياح، بهدف رفع الهمم وبناء وعي قومي ثوري، أي السعي إلى التحول والتغيير عن طريق الفن والإبداع الذي هو الشعر، وغير الشعراء هناك محاولات إصلاحية سبقت أو عايشت تجربة كولن في الإصلاح مثل: حركة النهضة التونسية وجماعة الإخوان المسلمين بمصر وحركة التوحيد والإصلاح بالمغرب جماعة العدل والإحسان بالمغرب على المستوى التربوي، ودعوات السلف السابق أمثال: علال الفاسي: محمد عبده، جمال

مشروع الخدمة يحمل مشروعًا كونيًا يلتقي فيه العلم والعرفان والعقل والوجدان والفكر والحياة العملية قصد تشييد فكر حضاري؛ إيماني التوجه، علمي النزوع، إنساني الجوهر.

الدين الأفغاني، مالك بن نبي، محمد حسن الحجوي... إلا أن المقارنة بين حركة كولن الإصلاحية والحركات الأخرى تكسب حركة كولن طابع التميز والاختلاف لكونها زاوجت بين الرؤيا التنظيرية والممارسة التطبيقية، عندما ترجمت تجربتها على أرض الواقع من خلال حركة الخدمة والمؤسسات التعليمية (بناء مئات المدن الجامعية وآلاف المدارس وعشرات الجامعات) والإعلامية (صحف ومجلات ومحطات إذاعية...) إلى جانب المؤسسات الصحية وعدد أكبر من دور النشر في تركيا وخارجها التي شملت القارات الخمس، وهذا يؤكد الرؤيا الشمولية الكونية العالمية في الإصلاح عند محمد فتح الله كولن، بدل الأخرى القطرية عند غيره من الحركات الإصلاحية.

الأستاذ فتح الله كولن يحمل مشروعًا كونيًا يلتقي فيه العلم والعرفان والعقل والوجدان والفكر والحياة العملية قصد تشييد فكر حضاري إيماني التوجه، علمي النزوع، إنساني الجوهر تدفع إليه روح تواقة إلى التحرر والانعتاق، والسمو والرفعة، والبكاء والأنين قصد تحقيق المستحيل لدى الأنفس الميتة والعقول الغائبة، فمفكر العصر الحديث يضع الأصبع على مكامن الضعف كي يجدد الدين ويعالج جراح الأمة الثخينة ويحارب اليأس والقنوط، ويوجه الجيل إلى ظلال الاسترواح من روح الله، مركزًا في ذلك على تجديد الثقة بالله ونشر الكلمة الطيبة المحملة بالعلم النافع والأخلاق الرفيعة والسلوك الروحي، باعتماد المنهاج القرآني السليم القائم على الوسطية والاعتدال. إنه يدعو إلى التوجه نحو الإنسان والحياة والكائنات، أي الكون عامة وذلك من خلال "رعاية مفهوم الإيمان والنظر الإسلامي، وشعور الإحسان، والعشق والشوق، والمنطق، وطريقة التفكير، وأسلوب التعبير عن الذات

hiragate.com

ورعاية المؤسسات والأركان، وإرشادها إلى التجدد"[1].

من خلال تقديم "أنموذج إنسان جديد" يتحمل عبء المسؤولية وثقل الأمانة يسميه بـ"ورثة الأرض" يكون باعثًا للروح المحمدية والأخلاق القرآنية.

إحياء لغة الروح عند كولن شرط ضروري لكي تتحقق النهضة الإصلاحية التي تعيد الأمة إلى جذورها الروحية للتغلب على "النفعية الذاتية، والكسل، وحب الشهرة، وطلب الدنيا... واكتساب فضائل مثل الاستغناء، محو الذات، الاهتمام بالغير، العلم..."[2]، فالعلل التي تنخر جسد الأمة، هي علل سلوكية أخلاقية فردية وجماعية نتجت عن فقدان الإحساس بالأمانة الربانية وبالرسالة المحمدية في التوجيه والتخطيط والبناء. ومن هنا يأتي تركيز كولن على بعث الروح الجسدية، وتجديدها بنفس العناية الدينية قصد بلوغ فجر الانبعاث بعد الموت، الذي يمكن الأمة من استرجاع ماضيها العريق، لربطه بعلوم العصر الحديث قصد الالتحاق بالركب في ما يتعلق بالتطور والتحديث والرقي والازدهار، مع الحفاظ على الخصوصية الثقافية.

إن هذا المفكر يستلهم المنهاج النبوي في الاقلاع، منهاج الدعوة (الوعظ والإرشاد على المنابر)، ليؤثر على القلوب حتى يتسنى له زرعها آمالاً وطموحًا، ثم إصلاحًا وبناء، ليحقق مرحلة تنزيل أفكاره على أرض الواقع من خلال دفع الناس إلى المشاركة في تدبير أموالهم في أعمال البر والإحسان. ومن ثمة يؤسس بهذه المعاملة معاني الثقة والشورى والتعاون والتضامن والتواصل مع الجميع.

لذا فتركيزه على بعث روح الفرد بخصائصه الإيمانية الأخلاقية، هو مفتاح لنهضة إصلاحية تتحول فيها الأفراد إلى جماعات، ثم مجتمعات، وهي التي تعطي مباشرة مفهوم العالم الإسلامي، أي تحقيق هدف المشروع الإصلاحي وهو الانبعاث الكوني والتغيير الشمولي، فتركيزه على إحياء لغة الروح جاء بعد تشخيص شامل لروح العالم الإسلامي الجماعي والذي أفضى إلى وقوع الفرد أسيرًا في قيود الجهل والانحلال الأخلاقي والخرافة والأهواء البدنية والجسمانية... مما انعكس

تركز الخدمة على بعث روح الفرد بخصائصه الإيمانية الأخلاقية، فهو مفتاح لنهضة إصلاحية تتحول فيها الأفراد إلى جماعات، ثم مجتمعات، والتي تعطي مباشرة العالم الإسلامي، أي تحقيق هدف المشروع الإصلاحي وهو الانبعاث الكوني والتغيير الشمولي.

على المجتمع عامة من حيث الظلام والخسران، لوجود تآكل روحي ومعنوي داخل ذات المجتمع، سببه فراغ الحياة القلبية والروحية، وهنا يظهر مدى حرص كولن في جعل الإنسان محور النهضة والانبعاث والتغيير والإصلاح، فبإحياء روحه الإيجابية يتحقق النصر والإقلاع، خلاف روحه السلبية التي تفيد الخراب واليأس والتأخر والهزيمة.

شروط وراثة الأرض

في حديث كولن عن إقامة صرح الروح يذكر بعض ملامح ورثة الأرض وأهمها:

١. **الإيمان الكامل**: الذي هو غاية لخلق الإنسان في أفق المعرفة وروح المحبة، وبعد العشق والشوق وتلون الخطوط الروحانية.

٢. **صفة العشق**: الذي يعد أساس الانبعاث من جديد، وهو نتيجة الإيمان بالله الذي يفضي إلى محبة وعشق كلي للوجود، ومصدره انجذابات وأذواق روحانية تساهم في تحقيق انبعاث عظيم.

٣. **الانفتاح على العلم بميزان العقل والمنطق والشعور**: وهو هنا ينفتح على ما أشار إليه بديع الزمان سعيد النورسي في "توجه البشرية في آخر الزمان إلى العلم والفن"[3].

٤. **إعادة الوارث ملاحظاته حول الكائنات والإنسان والحياة**: من خلال التأمل والتدبر في سر المخلوقات للوصول إلى المعاني الإلهية، ثم اعتماد عمق الشخصية والخصال السامية في تقييم الإنسان وشرعية الوسائل في الوصول إلى الهدف.

hiragate.com

٥. **احترام حرية التفكير**: لأن التحرر من صفات الإنسان، وهذا يخرجه من قيود الأسر الغربية التي فرضت عليه داخليًّا وخارجيًّا.

٦. **الحرص على امتلاك الفكر الرياضي**: والغرض منه هو تحقيق نهضة فكرية مثلما فعل الغربيون، واعتماده كقانون لفهم أعماق الوجود خاصة المتضادات، لأن إقلاع الروح يقتضي الجمع بين ثنائية الفكر والإيمان.

صفوة القول

الروح التي سعى ويسعى محمد فتح الله كولن إلى بعثها، هي الروح الفياضة المعطاء، الوارفة الظلال، والدانية الثمار، هي الروح التي تعني سمو القيم الأخلاقية وصفاء الأعماق الباطنية للإنسان، ورغبة القلب والروح في بلوغ مدارك الإنسانية الحقيقية لتجاوز الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، هي الروح التي تعلن الهجرة لخالقها، فتترك حياة الراحة والرفاهية، والخمول والكسل، لتسبح في فلك الوجود متأملة آيات الخالق، ومتأثرة بمعاناة المستضعفين. وهذا منطلق تكوين التجربة الروحية التي لغتها التواضع، وشراعها البحث، وغايتها الهجرة والأنين، هجرة ما تذل له القلوب وهو متاع الحياة الدنيا وزينتها، للإقبال على ما يسمو بالأنفس إلى مراتب العفة ودرجات التعبد ومراتب الجزاء.

فلنكن جميعًا محمد فتح الله كولن، بُكاء الصالحين في العصر الحديث، الرجل الذي ما بكى إلا ليضحك الزمان الجديد، والمصباح الذي يحترق لكي ينير دروب التائهين، والأمل الذي ينمو وينمو لكي يعيد مجد الأمة الثمين، وذلك من خلال السعي وراء إحياء لغة أرواحنا المريضة قصد معالجتها بنسمات الإيمان الذي يحقق مفهوم الانبعاث الحضاري من جديد. ■

(*) كاتب وباحث / المغرب.

الهوامش

(١) ونحن نقيم صرح الروح، ص ٧.

(٢) نفس المصدر.

(٣) الكلمات لسعيد النورسي ص ٢٩٢.

وطَننا الفضائي

يا كوكبًا سماويًّا!
رحالَنا على أرضك سنحطُّ،
وخيامنا سنقيم...
ليتنا معك لا نفعل،
كما بالأرض فعلنا؛
لا دمًا نسفك،
ولا حرثًا نهلك،
ولا حروبًا نؤجج

***

د. إسحاق السعدي*

الثقافة الإسلامية والمجتمع المدني

مما تميزت به الثقافة الإسلامية أن رؤيتها لقضايا الإنسان والحياة والكون مؤسسة على عقيدة راسخة، تتسم بالوضوح والملاءمة والجلاء، ذلك أنها:

أولاً: تنظر لتلك القضايا في دائرتين اثنتين، دائرة الإرادة الكونية القدرية التي يخضع فيها الإنسان للسنن الإلهية، وينتظم مع جميع المخلوقات في العبودية لله الواحد الأحد الفرد الصمد، المهيمن المؤمن السلام العزيز الجبار خضوعًا جبريًا لا اختيار له فيه، (كل له قانتون).

أما الدائرة الثانية فهي دائرة الإرادة الشرعية الاختيارية، التي تكون له فيها حرية العمل بأن يعمل أو لا يعمل، ثم هو مخير في أن يعمل الخير، ويدور مع الحق ويسابق في الخيرات، وقد يعمل العكس فيتورط في الشرور والآثام، ويدور مع الباطل ثم يجزى من جنس عمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معًا، وفقًا لسنن الله في النفس والكون والحياة، يقول تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(الزلزلة:٧-٨)، وقال كذلك: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(الكهف:٢٩) ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦)، ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾(النجم:٣٩).

والنصوص في ذلك كثيرة جدًّا من الكتاب والسنة في بيان هذه الإرادة والاختيار؛ والشاهد من ذلك أن الأحداث التي تمر بالأمة، والموقف منها وتنزيل النصوص عليها ينبغي أن يفرق بين الإرادتين، ويدرك ما يندرج تحت كل إرادة وما بينهما من تداخل وتمايز ومطابقة ومخالفة، وذلك بإعمال النصوص الشرعية الواردة في هذا الصدد، وعدم إهمال بعضها لتعزيز بعضها الآخر، وإنما الجمع بين النصوص بإعمال كل نوع فيما ينطبق عليه من مقتضيات الدائرة الأولى أو الثانية. فهناك أحداث قدرية كونية تأخذ مجراها وتنتهي لمنتهاها وفقًا لسنة الله؛ ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾(فاطر:٤٣)، ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾(فاطر:٤٣)، وهناك أحداث تندرج تحت اختيار الإنسان وتحدث نتيجة عمله فما كان من هذا النوع فهو مضمار العمل والنقد واللوم والمحاسبة ويخضع للمواصفات والمقايسة ويكون

مجالاً للتنافس والابداع والسبق والمسارعة وقد وصف الله المؤمنين بأنهم ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾(المؤمنون:٦١).

ثانيًا: هناك تداخل بين الإرادتين فيما يعمل الإنسان كون عمله يؤثر في السنن الكونية والنفسية والاجتماعية، هذا التداخل حقل دراسات واسعة في مجال تفسير التاريخ. ومن يتتبع القصص في القرآن الكريم يجد حشدًا هائلاً من هذا التداخل والأسباب والمسببات؛ ولئن جاء القصص في القرآن الكريم لأخذ العبرة بخبر الغابرين وأنباء المتأخرين: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾(يوسف:١١١)، فإنه أبان عن ثلاث حقائق مهمة:

الأولى: أن الكون والحياة والإنسان كل ذلك محكوم بسنن إلهية دقيقة منضبطة.

الثانية: أن هذه السنن منسجمة متداخلة يتصل بعضها ببعض ويندرج بعضها في بعضها الآخر.

الثالثة: أن عمل الإنسان يؤثر فيها جميعًا تأثيرًا إيجابيًا إن استقام على شرع الله واتبع صراطه المستقيم قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾(الجن:١٦)، ويؤثر فيها جميعًا تأثيرًا سلبيًا إن تفلت من شرع الله، ونكص عن صراطه المستقيم قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾(الروم:٤١).

ثالثًا: بما أن حياة الإنسان تتجاوز عمل الفرد إلى عمل المجتمع -والإنسان مدني بطبعه- فكذلك الأحداث تتجاوز مسؤولية الفرد إلى مسؤولية المجتمع، وبذلك يرتبط الفرد بمجتمعه ارتباطًا قويًا؛ فيلزمه واجب خاص به يؤديه وواجب آخر ضمن المجتمع.

ومن هنا نشأت جدلية فيما هو خاص، وما هو عام وما يترتب على الخاص والعام، وما يتحتم من التكامل بينهما والتوازن، وما يتكون من تشريعات تنظم حياة الفرد وحياة المجتمع. وقد تفردت الشريعة الإسلامية بتحقيق التكامل والتوازن بين الفرد والمجتمع في انسجام ومواءمة، ينعم الفرد بحرياته الأساس، ويتمكن المجتمع من سلطته، تلك السلطة المحكومة بالعدالة

الدارس لنصوص الإسلام من الكتاب والسنة وتطبيقاتها في السيرة العطرة يقف على تكوين المجتمع المدني في أكمل صورة؛ على الإيمان والعلم والمعرفة وعلى قيم التسامح والتعاون والتكافل والتعايش السلمي المؤسس على الحب والرحمة في شبكة العلاقات الاجتماعية، وقيم الحق والخير والجمال في فاعليته الحضارية.

حراء

والمتسمة بالرحمة والإحسان... وإذا كانت مجريات الأمور وأحداث الحياة قد تميل في جانب على حساب الآخر، فإن شرع الله يقيم العوج، ويفرض الاستقامة بأحكامه العادلة وأقضيته الملتزمة بأخلاقيات الإسلام وقيمه السمحة.

والحديث عن ذلك مستفيض بالنصوص والشواهد التطبيقية في تاريخ الأمة؛ من الأمثلة ذلك:

١. العناية بتربية الفرد تربيةً راشدة، تعتمد على ربطه بخالقه ﷻ فيما يقول ويفعل، وما يأتي ويذر بنيةٍ صالحة وعمل مخلص، تربيةً تغرس في وجدانه أهمية العمل الصالح، وأنه لا يتأتى إلا في مجموع هذا المجموع محكوم بحكم إلهي صارم، مستهل بقسم الله العظيم وحكمه الماضي الأكيد ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(العصر:١-٣). يُروى أن الشافعي قال : "لو لم ينزل على الناس إلا هذه السورة لكفتهم"؛ لا غرو فقد رسمت المنهج وحددت المسار بالحكم القاطع الأبدي على الإنسان بالخسر، ثم الاستثناء من ذلك الحكم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، فلا فكاك للفرد عن مجتمعه ولا نجاة له بمفرده.

٢. بما أن صلة الفرد بالمجتمع بهذه المكانة، وارتباط صلاحه بصلاحه وكون صلاحهما منوط بالعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فإن ذلك يفرض نوعًا من المسؤولية الاجتماعية على الفرد وعلى المجتمع، ذات أوجه متنوعة وجوانب عدَّة يضطلع ببعضها الفرد وبعضها الآخر يضطلع بها المجتمع،

hiragate.com

مرجعيتهما فيها إقامة مبادئ الحق وقيمه، وزادهما في القيام بها الصبر، وبذلك تستقيم الأمور، وتسير عجلة الحياة في الاتجاه الصحيح.

٣. تأسس تحت يدي المصطفى ﷺ وتحت نظره مجتمع مدني غير مسبوق، يستند إلى خطابٍ أدبي فكري بلغ درجة الإعجاز في بيانه وبلاغته، وانتهج أسلوب الحوار الراقي والتفكير في قضايا الوجود والحياة والاجتماع البشري وتاريخه. احتل هذا الخطاب مرجعية ذلك المجتمع، وبنى قوته الثقافية منذُ البعثة النبوية المباركة وما صاحبها من أحداث، وتبعها من معالجات، لمواقف قريش وصلف صناديدها في تقبل الرسالة والدخول في دين الإسلام أو السماح له بتبليغه ونشره حتى أجبرته بممانعتها المتسمة بالغضبية والصلف والكبرياء، والتآمر المشين على الخروج من موطنه مكة، فهاجر إلى المدينة المنورة وقبل هجرته الميمونة هاجر بعض أوائل من دخل الإسلام من دكتاتورية أبي لهب وجبروت أبي جهل لعدالة النجاشي وديمقراطيته.

٤. شرع المصطفى ﷺ منذ وطئت قدماه أرض طيبة الطيبة في تكوين المجتمع المدني، من خلال مؤسساته الدينية والمدنية، المتمثلة في بناء مسجد قباء ومسجده الشريف، وما تلا ذلك من تشريعات ونظم تعليمية وتربوية واقتصادية وسياسية أقامت كيان الدولة والوطن وأنشأت العلاقات الداخلية والخارجية وحررت المعاهدات والمراسلات وقامت بإرسال الوفود واستقبالها. ومن اللطائف الدالة على تكوين المجتمع المدني كونه ﷺ غير اسم المدينة من يثرب؛ اسمها القديم إلى المدينة ونهى أن تسمى يثرب. وفي هذا بالغ الدلالة على أن يكون المجتمع الإسلامي مجتمعًا مدنيًا في أسلوب حياته وفي أنظمته وتشريعاته وعلى هذا المنوال كان المصطفى الكريم يؤسس المجتمع المدني ويعزز فكرته وتطبيقاته في شتى الميادين والمجالات، حتى غدا على أكمل وجه وأتم صورة متوجًا بفتح مكة المكرمة:

مضت العداوة وانقضت أسبابها
ودعت أواصر بيننا وحلوم
وعليك من علم المليك علامة
نور أغر وخاتم مختوم
أعطاك بعد محبةٍ برهانه
شرفًا وبرهان الإله عظيم

توج ذلك المجتمع وتلك المرجعية ما تضمنته حجة الوداع من مبادئ السلام، وقيمه ونظمه في الحياة والأحياء في إطار الحقوق والواجبات؛ حقوق الإنسان بعامة وحقوق المرأة بخاصة، وربط فاعلية المسلمين الحضارية بالزمن والأخلاقيات الإنسانية السامية، وخطبه ﷺ في حجة الوداع زاخرة بقيم المجتمع المدني وتشريعاته ونظمه.

ختامًا

فإن الدارس لنصوص الإسلام من الكتاب والسنة وتطبيقاتها في السيرة العطرة، يقف على تكوين المجتمع المدني في أكمل صورة وعلى أفضل مثال؛ تكوينه على الإيمان والعلم والمعرفة، وعلى قيم التسامح والتعاون والتكافل والتعايش السلمي، المؤسس على الحب والرحمة في شبكة العلاقات الاجتماعية، وقيم الحق والخير والجمال في فاعليته الحضارية.

وعلى الرغم مما حدث بعد أن انتقل الرسول ﷺ للرفيق الأعلى من أحداث كادت تفرق الأمة وتعيدها لحالة التمزق والشتات والعداء والاقتتال، إلا أن رسوخ مفاهيم المجتمع المدني، وسيادة التشريعات والنظم المتكاملة كان هو الخيار الأمثل الذي استطاع خليفة المصطفى أبو بكر الصديق ﷺ بقوة ثقته في الله، وإيمانه بموعوده، ومضاء سنته في النفس والحياة والكون التي شكلت قوة الثقافة، لا ثقافة القوة التي هي مرجعية ذلك المجتمع المدني الفريد، أن يقف في وجه تلك الأحداث وأن يثبت قواعد العدالة وسيادة النظام العام بطابعه المدني الإنساني، ثم انتشر الإسلام وعمت الرحمة وشاع السلام، وترسخت نماذج هذا المجتمع في تاريخ الأمة الإسلامية الحضاري بما يرشحه لأن يكون خيارها الأمثل في واقعها الراهن ومستقبلها الواعد. ■

(*) أستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / المملكة العربية السعودية.

hiragate.com

د. جمال الحوشبي*

منهجية الرّشد السياسي

الشعوب المستضعفة إذا ملكت إرادتها فقدت السيطرة على حركتها، وعندها تبدأ ثورتها في وجه من ظلمها بموجة عاتية من الغضب.. تؤول إلى طوفان عارم من الفوضى؛ وهو ما يدفع بالغيورين لاتخاذ قرارات ومواقف طارئة ربما لم تكن مدرجة في الحسابات السابقة.

ومع ازدياد وتيرة الدفع الجماهيري صوب مراكز اتخاذ القرار، تزداد الحاجة للحديث عن منهجية الرّشد السياسي التي تتناول جملة من الأصول الكبرى التي لا ينبغي تجاوزها في خضم المدافعة الجديدة التي يتطلبها فقه المرحلة.

حين يتضح الهدف، وتتظافر الجهود، وتتحد الإرادات يزداد منسوب الحق وتظهر نتائجه، ويظهر الخطأ -في المقابل- حين تسود الضبابية، وتختلف الكلمة، وتستحكم الأنانية، ويعلو صوت الانتهازية النشاز.

حراء

أولاً: شمول الرؤية

الإسلام دين يسع الحياة كلها، ويسيّر جميع شؤون الحياة ولا ينفصل عنها. يعمر السوق والمسجد، ويُصلح الفرد والدولة، ويرفع من شأن العمل الصالح المثمر؛ على سجادة الصلاة، وفي الحقل، وبداخل معمل الكيمياء، بخلاف المناهج والعقائد الضاربة على وتر الفصل بين الدين والدولة.

وعند استعلاء المفهوم الأحادي للدولة الذي ينحو بها صوب القطب الديني وحده أو القطب الدنيوي وحده يغيب الرّشد، ويظهر الطواغيت الذين يعملون جاهدين لتوجيه (الدين) صوب محرابه الضيق، ليتفرغوا فيما بعد لتضييع الأمانة، وإدارة دفّة الحياة بظلم وجهل، بعيدًا عن منهج الله تعالى. قال سبحانه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٢).

إنّ شمول الرؤية السياسية يعدّل في أولويات برنامج الحزب؛ فبدلاً من اهتمامه "بإقناع الناخبين" يتوجه عمله صوب توعية الجماهير المسكينة التي لا يُخرجها بين الحين والآخر إلا البحث عن رغيف الخبز أو الرغبة في العيش بكرامة، والعمل على تبصيرها بحقيقة وجودها، والغاية من خلقها، والمساحة المشروعة لحركتها، مع الانتقال من مساحة الدعاية الإعلامية للحزب، ودغدغة عواطف الناخبين إلى ساحة العمل الجاد الذي يتلمّس أحوال الناس، ويأسوا جراحهم، ويسدّ جوعتهم، ويعلّم جاهلهم، ويحفظ كرامتهم.

إنّ القادة والسياسيين -في منهجية الرشد السياسي- يقومون مقام "الأنبياء الملوك" الذين يجمعون بين الدنيا والآخرة، ويزاوجون بين العلم والعمل. قال الكتاني رحمه الله: ولا شك أن المسلم إذا تتبع السيرة النبوية.. لم يبق له شك في أنّ نبيه جاء بعمارة الدنيا والعمل للآخرة، لا بخراب العالم والانقطاع عن العمل، حاشا وكلا. نعم جاء ﷺ بعدم تعمير القلب بالدنيا، تعميرًا يغفل به المسلم عن ربه وتوحيده، ولكن أمرك أن تجدّ وتجتهد، حتى تملأ منها يدك، وتترك قلبك لله، وما يرضيه منك من وجوه مبرّات وحسنات لبني جلدتك خالدات. بهذا جاء الدين لا بعكسه، ويدلّك لذلك أنّ ثلث الشريعة الإسلامية عبادات. وأسرار تلك العبادات تتضمن سعادة بدنك وحياة روحك، زيادة على إخلاص العمل لوجه الله. وبقية الثلثين معاملاتٌ دنيوية، وكيفية الأخذ منها والرّد بالقسط[1].

وجاء في "الروض الأنف" أنّ العلاء بن الحضرمي لما قدم على المنذر بن ساوى وخاطبه في الإسلام وشرائعه، أجابه المنذر بقوله: قد نظرتُ في هذا الأمر الذي في يدي، فوجدته للدنيا دون الآخرة، ونظرتُ في دينكم فوجدته للآخرة والدنيا فما يمنعني من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت؟! ولقد عجبتُ أمسِ ممن يقبلُه وعجبت اليوم ممن يردّه!! وإن من أعظام من جاء به أن يُعظَّم رسوله. وفيه أن الجلندي صاحب عمان لما قدم عليه عمرو بن العاص ﷺ قال له: انظر في هذا النبي الأمي الذي جاء بالدنيا والآخرة[2].

ثانيًا: تظافر الجهود

سياسة الرشد المنهجي تقود -ولا شك- إلى منهجية الرشد السياسي، إضافة للرّشد في كافّة المجالات. ولا يقتصر الرّشد السياسي هذا على حفظ مقدّرات الأمة والمصاولة في ثغور البرلمانات، ولا بالدخول في تكوين الأحزاب واجتذاب أصوات الجماهير، بل يشمل جميع أنشطة العمل الاجتماعي الرامية إلى حفظ مكانة الإنسان، وتأمين احتياجاته الضرورية، وإيجاد الحلول للمشكلات الضاربة.

إنّ منهجية الرّشد السياسي الحقّة لا تطير بجناح واحد.. هو جناح الحزب الحاكم، ولا تحيل الناس إلى قطيع يسبّح باسم الرئيس صباح مساء، ولا تغضّ

hiragate.com

الطرف عن سرقة دينار، ولا عن سجن مظلوم ليوم واحد، ولا عن كلمة زور في القناة الرسمية، ولا عن بروتوكول يصنع طاغوتًا. كما أنّها -في المقابل- لا تسمح للجماهير بانتهاج فوضى الحركة لمبرر المطالبة بالحقوق، ولا بإثارة الفتن، ولا تسمح بتضييع المكاسب والضرب على وتر الإخلال بالأمن الاجتماعي.

وحين يتضح الهدف، وتتظافر الجهود، وتتحد الإرادات يزداد منسوب الحق وتظهر نتائجه، ويظهر الخطأ -في المقابل- حين تسود الضبابية، وتختلف الكلمة، وتستحكم الأنانية، ويعلو صوت الانتهازية النشاز.

والكلّ -في منهجية الرّشد السياسي- قائم بحدود الله تعالى.. مهما كان منصبه، وأيًّا كان دوره، وهو مسؤول عن سفينة المجتمع التي أوصى بها رسول الله ﷺ بقوله: "مثل القائم على حدود الله والمدّهن فيها كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر؛ فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذونا، فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا. فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا" (رواه البخاري). وفي رواية أنّ الباعث على هذا الجُرم الاجتماعي الكبير لم يكن منع إخوانهم في الأعلى، وظلمهم إياهم، بل اجتهاد خاطئ ظنّوا أنّه يراعي (المصلحة)؛ فهم لكثرة ما كانوا يصعدون فيؤذون إخوانهم قالوا: "لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا" (رواه البخاري).

ثالثًا: تأمين الجبهة

لا شيء يفوق مهمة تأمين الجبة الداخلية؛ لأنّها الضمانة الأولى لدحر العدوّ الخارجي -الجاثم على إذكاء الخلافات والصراعات الداخلية- وإبطال كيده؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾(آل عمران:١٢٠).

وهذه الضمانة لا تتحقق إلا بجهود التقارب الصادقة، وتحديد قيم "تقرير المصير"، ونبذ "التنازع والفشل"، والدوران مع الحق، مع الابتعاد عن

إنّ المنكر لا ينقلب معروفًا، ولا الباطل حقًّا بمجرد أن يمارسه (الإسلاميون)، من الوقوع في الزلل؛ لأنّ العدل عدل بذاته.. بغض النظر عن هوية العادل، وكذلك الظلم وسائر القيم.

حراء

المثاليات، الراغبة في الاندماج من كلّ وجه.. بين عشية وضحاها، والسعي لإيجاد القيم المشتركة حول غايات ومبادرات تأمين الجبة الداخلية، باستصحاب "الفطنة" العاصمة من الوقوع في آفات دعاوى التقريب وجمع الكلمة على حساب الحق نفسه، أو التخلّي عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو تحييد قضية التوحيد والتحذير من الشرك! وهي المعادلة الكبرى التي يدور عليها محور العمل في منهجية الرشد بحكمة بالغة.

والوعي المشترك بواجبات تأمين الجبهة يتطلب جملة من المقدمات، لعلّ أهمها: استحضار مكاسب: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾(الكهف:١٩) لدى القائمين بالعمل الاجتماعي والتعليمي والتربوي طوال العقود الماضية، ومكاسب: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾(يوسف:٥٥) لدى القائمين بالعمل السياسي والقيادي طوال العقود الماضية، مع التأكيد على ضرورات النجاح الخمس، التي يتطلبها التعاون المشترك لتربية الجيل القادم على الرّشد:

١. ضرورة الوعي بأثر الإيمان على جميع شؤون العمل السياسي، وأنّه الضابط لتحركات الجماهير، وقرارات الساسة والوزراء، والموجّه الفاعل لفلسفة السياسة، ومناهجها، وغاياتها، وإجراءاتها الرامية لتوجيه السلوك الجماهيري العام، وفق متطلبات التنمية في شتى مجالاتها.

٢. ضرورة الوعي بثنائية الاتجاه في التربية السياسية التي لا تقتصر على إعداد القادة، وتنظيم الأحزاب فحسب، وإنّما تتوجه إلى الجماهير نفسها، لتزكيها وتغرس فيها قيم: التقوى، والعدل، والصدق، وحبّ الحق وإيثاره، والرحمة، والاجتماع، والتحمّل، والإيثار، وترك العجز والكسل، وعلوّ الهمة، وقوة الإرادة.

٣. البدء بهدف التنمية البشرية التي تتشكّل على إثرها شخصية الأفراد وإراداتهم وقناعاتهم، واليقين

hiragate.com

الإيمان فقط هو الذي يروّض إرادات الشعوب المستضعفة، لتصبر على مضض العيش، وتواصل العمل والصبر في السنوات الشداد قبل أن يحلّ الفرج. ولا سبيل لهذا الترويض إلا بتعريفها بمرادات خالقها سبحانه لتمتثلها، ومرادات أعدائها لتحذر منها.

بأنّ تحقيقه ضمانة لتحقيق التنمية المتكاملة في شتى مجالاتها: الاقتصادية، والتعليمية، والصناعية، والعسكرية، والإعلامية.

٤. البدء بترسيخ معاني الأخوة في الله، القائمة على: صدق الموالاة، والمحبة، وإحسان الظنّ، وسلامة الصدر، والإيثار، واحتمال النصيحة والنقد، وسماحة النفس، وسعة الصدر، واليقين بأنّ تحقيقها ضمانة للاعتصام واجتماع الكلمة، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾(آل عمران:١٠٣). مع ضرورة تشييد الحصون بتحديد معاني الاعتصام والأخوة في الله، وأنّها تسعة خلافات الرأي، والمبادرات الناجمة عن المسائل الخلافية السائغة على طول الطريق.

٥. استصحاب الضمانات القرآنية الأربع: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(العصر:٣)، والتريّث في طلب النتائج، مع إدراك أن المآلات التنموية الحميدة محصلة مجاهدة صادقة وطويلة على: التظافر، والتناصح، والتشاور.

رابعًا: الحذر من سكرة السياسة

للسياسة شهوة تفوق سائر الشهوات، وزلّة تدحض بها سائر الزلات. وإذا كان حقّ على الذين يتعاطون الكؤوس أن ينهى بعضهم بعضًا، كما قال الأصوليون، مستدلين بقوله تعالى: ﴿كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(المائدة:٧٩) فإنّ أولى الناس بذلك: الراغبون في الاستمتاع بالسياسة المعاصرة، مستصحبين حقيقة العِوج والانحراف فيها.

إنّ المنكر لا ينقلب معروفًا، ولا الباطل حقًّا بمجرد أن يمارسه (الإسلاميون)، وحتى الملائكة المقرّبون، حاشاهم عليهم السلام من الوقوع في الزلل؛ لأنّ العدل عدل بذاته.. بغض النظر عن هوية العادل، وكذلك الظلم وسائر القيم. وما أشدّ فقه شيخ الإسلام ابن تيمية حين أخرج دعاوى الانتماءات البشرية عن دائرة الحكم بصلاح القيم أو فسادها، بل عدّها المعيار الحاكم على صدق تلك الانتماءات وكذبها، بقوله رحمه الله: إنّ الله لينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة على الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة! كيف وقد قال الله تعالى في الحديث القدسي الصحيح: "يا عبادي إنّي حرمت الظلم على نفسي، وجعلته محرّمًا بينكم فلا تظالموا" (رواه مسلم).

وإذا جاز في السياسة المعاصرة أن يستغل السياسي حال الجماهير وحاجتهم ليكسب المزيد من أرصدته الانتخابية، ويستغلّ المواقف الإنسانية لإخفاء أطماعه السياسية، فإنّ منهجية الرشد السياسي لا تتنازل عن قيم العدل والرحمة، والصدق والنصيحة، وأربابها هم أهل العلم والحكم الذين "يعرفون الحقّ، ويتبعون سنة الرسول، ويرحمون الخلق، ويعدلون فيهم"[٣].

وكل سياسي يوالي في الحزب ويعادي مهما كان حجم الخلل فإنّه غاش لأمته، وخائن لأمانته؛ لأنّ الطبيعة البشرية تأبى الرضوخ للباطل لمجرد تحصيل المزيد من المكاسب! بل أي مكسب ذلك الذي لا يُتحصّل إلا من جراء ضياع الدين والأمانة والشهامة، واعتماد المبدأ الفرعوني الذي يساوم على إطعام الأفواه، وكِساء الأجساد لإسكات الحق: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾(الشعراء:١٨).

إنّ أظهر معالم السكرة السياسية تتجلى قبيل الانتخابات.. حين تتحوّل العملية السياسية برمّتها إلى (لعبة) انتهازية.. تتطلب المزيد من المراوغة والكذب، والمزيد من الخصومة والنفاق؛ لأجل الوصول إلى قلوب الناخبين وعقولهم. والأعجب في هزلية هذه (اللعبة) حين يصرّ المرشحون -الإسلاميون خاصّة- الفائزون بأصوات الجماهير الغاضبة بأن فوزهم جاء نتيجة تكامل

hiragate.com

رؤيتهم السياسية، بينما تُظهر نتيجة استطلاعات الرأي بأنّ الشعوب إنما اختارتهم لأنهم يخافون الله!!

ومن دلائل السكرة السياسية تباين حساباتها في ملء الفراغ؛ فالأحزاب غالبًا ما ترفع شعاراتها بدقّة لزيادة رصيدها، لا لزيادة منسوب القيم في تلك الشعارات! فإذا أعطت أو منعت فإنّما تدور في فلك مصالحها، وإذا تنازلت عن بعض حقوقها أو رفعت سقف مطالبها فللغاية ذاتها، لا من أجل القيم التي ترفعها. وصاحب هذا النوع من السكرة يتقمّص شخصية "المدافع عن القيم"، حيث تجده يكرر تصريحاته حول المعروف والمنكر، والظلم والعدل، والسِّلم والإرهاب زورًا وبهتانًا، كما قال: "لا يعرف معروفًا، ولا يُنكر منكرًا إلا ما أُشرب من هواه" (رواه مسلم)، فالمعروف ما وافق هواه، والمنكر ما خالفه.. هكذا بكلّ بساطة!!

خامسًا: توليد الأمواج الصاعدة[٤]

الحراك الاجتماعي الفاعل هو الذي يولّد تغييرًا إيجابيًا منطقيًّا وهادئًا؛ نتيجة تنشئة طويلة على القيم في أزمنة السلم. ويقابله (توليد الطوفان) المنبعث من الثورات السطحية الناشئة، الطامحة للحرّية والحياة الكريمة جراء تراكم سنوات الظلم والقهر، والإذلال والتغييب عن الهوية.

وحركة أمواج التغيير الصاعدة تجمع بين رجاحة الوعي ورجاحة الحركة معًا، وهي تنشأ بفاعلية وثبات جراء تراكمات تربوية وإيمانية طويلة، أدركت خلالها طبيعة الخلل، وأبصرت مطالب التغيير، واستبقت الخيرات، ووظّفت الفرص المتاحة للاستصلاح، وتخصصت في كافة المجالات، وعقدت شراكاتها الاجتماعية الواعية مع كافّة الأطياف.

إنّ هذا النوع من التغيير ضمانة لتحقيق الاستقرار الداخلي والريادة الأممية لأنه يستند على قناعات إيجابية راسخة يتم غرسها في عقول الجماهير من خلال تربية طويلة، وبدونها تظلّ تلك الجماهير متوثّبة تنتظر أمواج الطوفان الهادرة للثورة على الفساد والطغيان، أو تصبح مكسورة الجناح، خائرة القوة لا تدور إلا في فلك مصالحها الضيقة.

والتربية الطويلة لتوليد هذه الأمواج النافعة -التي يحصل بها التغيير النافع- تسير وفق مسارين متوازيين: مسار الترويض للشخصيات المقهورة المشوّهة، ورعايتها، وتنشئتها تنشئة متكاملة، وفق منهج رباني يحكم حياتها، ويوجه سلوكها نحو الغاية من الوجود، ومسار آخر يأخذ بيدها صوب التخصص الواعي الذي يتخلل -بعد عقود- كافة مرافق المجتمع ومؤسساته؛ ليقوم بدوره في استصلاح الأنظمة، وبناء الكيانات، وتحديد الغايات، وخدمة الجماهير المستضعفة، وبناء الإجراءات، وتعديل الانحرافات، دون الحاجة لثورة عارمة.

وفي غياب هذا النوع من الأمواج النافعة ستظل الجماهير الجائعة متوثّبة لأي ثورة قادمة تحرّكها أيادٍ خفية لتوليد الطوفان القادم الذي يحقق مكاسبها، وتبني على أطلاله أمجادها. فقط هو الإيمان الذي يروّض إرادات الشعوب المستضعفة، لتصبر على مضض العيش، وتواصل العمل والصبر في السنوات الشداد قبل أن يحلّ الفرج. ولا سبيل لهذا الترويض إلا بتعريفها بمرادات خالقها سبحانه لتمتثلها، ومرادات أعدائها لتحذر منها. ■

(*) المشرف العام لمركز رؤية الثقافي بمكة المكرمة / المملكة العربية السعودية.

المراجع

(١) التراتيب الإدارية، نظام الحكومة النبوية، ج ١، ص ١٦.

(٢) الروض الأنف للسُهيلي، ج ٤، ص ٣٩١.

(٣) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، ج ٢٧، ص ٢٣٨.

(٤) مصطلح أطلقه الأستاذ محمد فتح الله كولن إجابة على سؤال يتعلق بثورات الشعوب المستضعفة.

الكنوني أنس*

أعشق...

أعشق المطر ونسمات التراب المبلل بقطرات المطر، وهمسات البشر عند نزول المطر.

"الحمد لله" ويشدوني الحنين إلى اعتناق الدرر، والأكف ترفع في الهواء لتلامس حبات المطر، كأني ألامس الملائكة وهي تنزل بقطرات المطر لتثبتها في الأرض، أتفكر وأتدبر في روعة الموقف وعظمته، وأنساب وأتغلغل في ملكوت المولى وحكمته، فتنزل الدمعات وتختلط مع قطرات المطر، وتثبت مع عشيقتها التي عشقتها، لتقول له إني أحبك يا ربي أحبك، هل يا ترى تحبني..! أعلم يا ربي أني أخطأت، غررت وسقطت، لكني يا ربي عدت واستشعرت الموقت وعجزت، عجزت عن كل شيء، عجزت عن طلب أشياء أتمناها، عن أشياء أهواها، عن أشياء بودي إياها، شيء واحد استطعت قوله فقط، سامحني ربي سامحني، سامحني..!!

نعم أعشق الليل وأهواه، أعشق صمته، هدوءه، وفاءه، صدقه، وحدته المؤنسة بقرب ربي، نعم أهواه، لا أستشعر البرد ولا شكواه، ولا عتابه ولا سهامه، بل جماله وروعته الهادئة، وعبيره الرباني في ثلث الليل نزل كسكينة كطمأنينة تغشاه، يقول هل من مستغفر فأغفر له هل من داع فأستجيب له.. تذوب روحي، ينفطر قلبي، يسيل دمعي، ويرتاح قلبي، وتهمس الشفاه، حقًّا إني أهواه، حقًّا إني أهواه.

آه منك يا أيامي ويا ليالي، خاب رجائي في كل شيء، غير ربي ما خانني أبدًا ما خانني، وحاشا أن أفكر بذلك حاشا، أو أن يقل رجائي، فأنت المولى فيك كل شيء لا يوصف، ولا يعبر ولا يعد، ولا يخطر حتى

على البال، وتهتف الروح من جذور أشجانها "ربي أنا ذاهب ولو لم تشأ ما ذهبت، ربي أنا فاعل ولو لم تشأ ما فعلت، ربي أنا غالب ولو لم تشأ ما غلبت، ربي أنا مغلوب ولو لم تشأ ما غلبت، ربي أنا حزين فالحمد لك حتى تفرج عني وبعد أن تفرج عني، حمدًا وشكرًا يليق بمقامك، وتسقط الأمطار غزيره، غزيرة غزيره!! ربي كن حدي، إني فقدت الثقة في كل شيء حتى في نفسي فكن حدي فإني أثق بك وبدون زيادة، ربي تعجبني كم حاجة وحاجة، تعجبني كم وردة ووردة، وتلدغني كم شوكة وشوكة، وينفطر قلبي كم مرة ومرة، وربي أنت تعلم أني بفضلك لم أسقط ولم أتجاوز، فكن حدي واحفظني بما تحفظ به عبادك المصلحين، وتذوب الروح في الجسد، وتهتف بترانيم روح وأشجان قلب" ربي أنت تعلم أني قد أحسن تارة، وقد أسيء تارة، فإني وكلتك كل أموري، وعليك توكلت، فاختر لي وإن أسأت التقدير الآن، ستجدني راضيًا شاكرًا حامدًا بعدها.

آه كم أعشق ذلك السلم المعراجي وكم أطمح صعوده وتسلقه، آه كم أعشق الوحدة بين ضفاف رحمتك ربي، والمطر يبلل خدي، آه كم أعشق.

يبدأ المطر يخفت شيئًا فشيئًا، وأبدأ في التساؤل، يا ترى ماذا جرى؟ هل ملائكة الرحمان سترحل..؟ أم أن الأرض قد امتلأت عن آخرها ولم تعد هشاشة قلبها تقوى على التحمل..! بلى بلى خذي قلبي إذن، وضعيه إلى جانب قلبك فلم يعد يهمني، ودعيني فقط لبعض ساعات أودقائق إذا أردت أتحسس حنان وعطف الملائكة في قطرات المطر، دعيني أشرب من نهر عشقهم الرباني، أستقبل وأتحسس رقتهم بين أناملي، أحب فعلاً أنى أحب، لكن لا أحب إلا ذاك الحب الذي زرعه ربي في قلبي، فهو في دمي يسري، وإني لا أسر سري وأكتفي، إني أعشق وحدة الليل مبللة بأمطار تهب بها رياح الشوق معبأة بنسائم التربة الفردوسية التي نزلت مع ملائكة الرحمة. ■

(*) كاتب وباحث / المغرب.

الآتي القريب

لا محالة، فالموت آتٍ...
شواهده من ورائكَ قائمة...
أَفقْ من سكرتك،
واستنهض فكرتَك،
وأحبابَك لا تنسَ..!
ولا تدَع الدنيا تأخذك،
وبمباهجها تغرقك،
والعقلَ تسلبك،
وملاقاة الموت تُنسيك..!

***

د. عبد الإله بن مصباح*

حديث الحجر المسبِّح

لقد كنتُ دائمًا في مجالات بحثي أتطلع إلى فهم منطق الحجَر، فكنتُ بعد جهد البحث الجيولوجي أجلس إلى نفسي مليًّا أطلب بحواسي وعقلي استجلاء معاني حديثه، فأجده كل مرة يُعرِض عني في صمت رهيب، إلى أن استهديت إليه بروحي فوجدتُه من وحي الإلهام يحكي حكيًا يعجز عنه التعبير برواية الكلام، وكأنه يقول:

ما أدركتَه أيها الإنسانُ بحواسك وعقلك أنا أسعُه وإياك لأنني بجسمك محيط، لكن ما سموتَ إليه بروحك هو يستوعبني لأن الروح بي وبالأشياء تُحيط. ألم تسمع لنظْم العارف الرباني الشيخ البوزيدي في وصفه للروح وهو يقول:

فسِرّها قد أحاط بالأشياء جملة وإن كانت بالجسم الأشياء محيطة[1].

الحجر والرسول ﷺ

بلَغ الناسَ أنني سبّحتُ في كف رسول الله ﷺ فقالوا معجزة، لكنني بتسبيحي هذا لم أخرق العادة، بل كنتُ وما أزال وسأبقى مسبّحًا إلى أن يرث الله الأرض وما عليها. ولك أن تستبين سر تسبيحي هذا من كتاب الوصايا لابن عربي الذي جاء فيه[2]: "روي في الصحيح أن الحصى سبح في كف رسول الله ﷺ، فجعل الناس خرق العادة في تسبيح الحصى وأخطأوا، وإنما خرق العادة في سمع السامعين ذلك. فإنه لم يزل مسبحًا كما أخبر الله إلا أن يسبّح بتسبيح خاص أو هيئة في النطق خاصة لم يكن الحصى قبل ذلك يسبّح به ولا على تلك الكيفية، فحينئذ يكون خرق العادة في الحصى لا في سمع السامع، والذي في سمع السامع كونه سمع نطق من لم تجرِ العادة أن يسمعه"[3].

وهذا استشهاد يبين لك أن المعجزة ليست في تسبيحي ولكن في سمع رسول الله ﷺ لهذا التسبيح، لأنني دائمًا مسبح، وتسبيحي هذا هو دليل حياتي وبقاء أثري بعد مماتي.

هذا التسبيح لا يمكنك أنت الإنسان أن تفقهه بحكم قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(الإسراء:٤٤)، وإنما يمكنك استشعاره نظرًا لما تجلّيه لك وسائلك العلمية من مفاهيم مقترنة بطاقتي الباطنية أي بفاعليتي.

وهو ما تكشفه لك دراساتك من تطوراتٍ بشأن مادتي التي هي في تغيّر دائم بفعل عوامل التعرية والنقل والترسب، التي تحدد علاقة مكوناتي مع مجالها الخارجي، ثم بفعل التفاعلات الكيميائية الحاصلة مع هذا المجال والتي تُفضي عند استقراري، بعد نقل مكوناتي بالمياه أو الرياح، إلى إعادة ترتيب نُظمي بشكل متوازن يتلاءم ومميزات محيطي، ثم في الأخير بفعل ما يلحقه بي النبات والحيوان وكذلك أنت الإنسان من تغيرات بسبب علاقة التبادل القائمة دومًا بيني وبين هذه الكائنات، ولا أدلَّ لك على فاعليتي هذه من إصداري لإشعاعات تصنفونها في علومكم ضمن الأشعة تحت الحمراء والتي ترتكز عليها أقماركم الاصطناعية للكشف عن سطح الأرض.

وعليه فلكي تَفهم سر وجودي وتدرك خصائص مكوناتي التي طالما تغيرت مع الزمان وغبرت في طيات المكان، كان لا بد لك من استحضار جميع هذه المعطيات المرسّخة في بقايا والناتجة عن مختلف الأنظمة الفيزيائية والكيميائية والإحيائية التي ساهمت في تحول مادتي، وتطورها داخل المنظومة البيئية المتغيرة بتغير الأماكن والأزمنة. وبذلك تكون مادتي الحجرية التي مهدت لوجود الحياة في الظرفية الزمانية والمكانية لتواجدي مع الكائنات بما فيها أنت، بمثابة شاهد على فاعليتي وتجاوبي معك ومع المحيط البيئي الذي يحضُنني، بحيث إذا أمكنك أيها الإنسان فك الرموز والشفرات المرسخة في ثناياي، ظهر لك ما كنتُ أستنسخه من عملك وعمل الكائنات أثناء وجودها حية على ظهري، نظرًا للعلاقة الأزلية القائمة بيني وبينها.

فما من عملٍ يُعمل فوق هذه البسيطة إلا وأحفظُه في مكوناتي وأكتُمه في ثناياي، حتى إذا قدَّر الإله فنائي أخرجتُ محتوياتي وحدّثتُ بما سجلته من أخبار ساكنتي، وذلك بما أوحى لي ربي القائل في حقي ﷻ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۞ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾(الزلزلة:٤-٥).

الحجر وتفاعله مع الكون

إن كنت حجرًا جامدًا في عُرفك، فإنني أتجاوب باستمرار مع متغيرات محيطي الذي أُحيا فيه، ويمكنك أن تلمس هذا التجاوب في الهيئة البلورية التي يكشفها لك تحليلي المجهري.

هذه الهيئة التي تتألق لك أشكالها وتتلألأ لك أنوارها في نسيجي الصخري، إنما هي مرآة عاكسة للتشكيلات المعدنية المنبثقة من تفاعلات النُسق الكيميائية الناشئة في الوسط الذي يحضُنني. بحيث إذا أخضعتَ مادتي للفحص المجهري وظهرتْ لك معالم هذه الهيئة البلورية في الأشكال العجيبة والألوان الزاهية التي تختلف باختلاف تركيباتي المعدنية، اتضح

hiragate.com

لـك أن النـور الـذي تتـلألأ بـه بلوراتي إنما هـو انعكاس لسـر يُخفيـه نظامها الـذري الذي من تشـكيلته الكيميائية انبثقـت تركيبتي المعدنيـة. فـإن أنت سـبرت أغـوار هذا النظـام الـذي تآلفـت ذراتـه في جزيئـات النسَـق البلوري (Cristal) المنسـجم مـع قـراري، تحدثـتْ إليـك مكوناتي بنـور مكونهـا، فتنبهت إلى معنى قول ربي ﷻ: ﴿اللهُ نُورُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(النور:٣٥) وتحيرت في إدراك معنى قوله سـبحانه:﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْـكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَـجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَـرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْـهُ نَارٌ﴾(النور:٣٥) بما يوحيه لك الوصف القرآني مـن معانـي إعجازيـة بخصـوص المغـزى من ذكـر تلألؤ الزجاج الذي من شكله البلوري يسطع اللمعان، ثم من ذكر الزيت الذي يُضيء ولم تمسسه نار وما دلالة ذلك علـى أثـر الفاعليـة الخفية التي كما أودعهـا الله تعالى في كيـان الكوكـب الدري، أودعها أيضًا في كياني وفي كيان المكوّنـات التي منها يسـري النور الـذي به يتلألأ الكون دون أن تُمد بطاقة خارجية.

عجائب وغرائب

إذا علمـتَ أن مـا مـن ضـوء فـي عالـم الماديـات، مـن الشمس إلى الشمعة إلى المصباح الكهربائي، إلا وأصله مـن مـس النـار، تيقنـت أن مصـدر النور الـذي تضيء به بلوراتي فيضيء ظلمة الوجود إنما هو أثر من سر فاعلية الله التي بثها سبحانه في كل موجود.

ولتأكيـد هـذا المعنى دعك أيها الإنسـان من الوقوف مـع ظاهـري وانفُـذ منه إلى باطني، فإن مـا تُخفيه عنك بلوراتي من أسرار لَيحمل إليك من الحقائق ما تزدهي به الأرض من أنوار. هذه البلورات إذا تفحصْتَ تشكيلاتها، فستجدها تقوم أساسًا على ميزة التماثل.

وهـي صفـة تـدل علـى تطابـق وجيهـات البلـورة في ازدواجية عجيبة التركيب، دقيقة التصميم، تتجلى لك من جميـع المستويات عبر محور البلورة أو مركزها، بحيث إذا تسرب إليها الضوء انعكس في جميـع الاتجاهات.

فـإذا أنـت اسـتحضرت مـا قلتُـه لـك من كـون هيئتي البلورية هي انعكاس لنظامي الذري، فإنك سـتقف على مشـهد ترى من خلاله أن الترتيب الأساسـي لذراتي هو أيضًـا متماثـل، وأن التماثـل البلـوري الـذي منـه تسـطع أنـواري إنمـا صدر من تناظر ذراتي الـذي تحدَّد بموجبه المظهـر الجزيئي المؤسـس لمختلف الأشـكال البلورية المؤصلـة لمادتي الصخريـة. وهـذا مـا يُضفـي علـى مركباتـي صفـة الازدواجيـة التـي عمـت كل شـيء مـن الـذرة إلـى البلورة إلى الصخرة إلى الجبل فالأرض التي تتناظـر أطرافهـا حول مركزها الكائن في نواتها الباطنية. وكل كائن حي من النبات إلى الحيوان إلى الإنسان إنما تأصلـت مادتـه من طينـة الأرض التي تشـكلت مكوّناتها مـن تبلـور معدني على تلـك الهيئـة البديعة مـن التماثل الازدواجي.

ذلـك التماثل الذي تجدُ رمزيته مجسـدة في الشـكل المكعّـب للكعبة المشـرفة أصلِ النظـام البلوري المكوّن لكل مادة صلبة على وجه الأرض. وذلك سر من أسرار مادتـي أتحـدث بـه إليـك فـي دلالـة علـى تفـرد الخالـق سبحانه بالوحدانية وإضفاء صفة الازدواجية على كل ما سواه حتى تعكس كل تلك المكوّنات وحدة المكون في

كيانها، فتكون بنوره قد نوّرت الوجود دالة لك على أنه سبحانه ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ (النور ٣٥) وأن لولا نوره ما ظهر حق في ظلمة الوجود.

وعلى هذا الأساس تبقى الأسرار التي أتحدث بها إليك معبرةً عن تجاوبي مع المتغرات التي أتفاعل معها. فأنا أنشأ من تلاحم مركبات معدنية أو عضوية أو مزدوجة، فأتماسك وأتصلب ما شاء الله لي أن أتصلب، ثم تأتي عليّ عوامل التعرية فتُضعفني إلى أن أتفتّت أو أتحلّل، فتُنقل مركباتي مع مجاري الرياح أو المياه ما شاء الله لها أن تُنقل وأنى شاء الله لها أن تُصرف إلى أن تتوضّع أخيرًا في الأماكن المخصصة لها، فتتماسك من جديد ويقسو نسيجي ثم يعود إلى الليونة مع الزمان بفعل ما تلحقه به عوامل المكان.

تشبيه رباني

الله سبحانه لما شبه قلوب الجاحدين بي زاد على ذلك بأنها أشد قسوة مني لأنني قد يظهر عليّ أثر المطاوعة والخشوع مع الزمان بتفاعلي مع عوامل المكان وعلى رأسها الفاعلية المائية التي هي عنصر التأثير المباشر على مجريات أحداثي، كما أخبر بذلك كتاب الله في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾(البقرة:٧٤)، أما القلوب الجاحدة فإنها أكثر قسوة مني لأنها تتغشّى في غشاوة تجعلها عديمة التجاوب مع أي مؤثر خارجي مهما طال عليها الزمان أو تغير حولها المكان.

بل وربما تكون على عكسي تمامًا، كلما طال عليها الأمد إلا وازدادت قسوة كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(الحديد:١٦).

وهكذا فالله ﷻ لما جاءك أيها الإنسان بهذا التشبيه الذي جعل الماء فيه أداة التغيير في مواصفاتي وعلامة تجاوبي مع متغيراتي، أراد أن يُظهر لك سبحانه أثر الوحي على ترطيب القلوب من خلال ذكره لأثر الماء على تليين الحجارة، فأضفى صفة الليونة مع الزمان على كل نوع من أنواعي، بحيث رتب لك سبحانه تعليل ذلك في الأصول الثلاثة التي تأصلت منها مادتي والتي تجدُها معتمدةً حاليًا في التصنيف الجيولوجي لمختبراتكم العلمية. فجعل سبحانه من أنواعي ما يتفجر منه الأنهار وهو شأن الصخور الباطنية (Magmatic) التي تُفجّر عند فورانها من البراكين قبل أن تقسو على السطح أنهارًا من مياه حارة وأنهارًا من صهارات معدنية مختلفة. وجعل من أصنافي أيضًا ما يشقّق فيخرج منه الماء وهو شأن الصخور المتحولة (Metramorphic) الناتجة عن التضاغط الأفقي بين قطع السطح أو عن الكي الناجم عن ملامسة الصهارة الصاعدة من باطن الأرض، ومثلها تجده في الصخور الطينية التي إذا ما وقع عليها إجهاد تجففت بإفراز الماء منها وتنضدت في تورق نحيل (Schistosity). وجعل من أصنافي أيضًا ما يهبط وهو شأن الصخور الرسوبية (Sedimentary) التي بتراكمها على بعضها وتكدّسها (Compaction) مع الزمان تنقُص أحجامُها تحت وطء الحمولات المتراكبة فوقها بإفراز ماءها وانسداد مسامها، فتهبط بمقادير تتجاوب مع ثقل ما توضّع فوقها.

وهذا يُعطي لك أيها الإنسان دليلاً ملموسًا على أن لي فاعلية خفية تعبّر عنها تفاعلاتي الباطنية في تجاوبها مع محيطي الخارجي. وأنت بإيمانك بكتاب الله مدركٌ لهذه الحقيقة من خلال ما جاءت به آياته من إشارات لدبيب الحياة في كل ما خلق الله سبحانه بدليل أن أشياء تحسبها جامدة ستشهد عليك يوم القيامة بما سجلته عليك في حياتك مصداقًا لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(فصلت:٢٠).

ثم أنت بتحصيلك العلمي تلمس كما بينتُ لك ذلك أن مركباتي مكونة من جزيئات تتشكل كل منها من ذرات متماسكة في تنظيم دقيق تُشكل الذرة فيه نظامًا دائريًا بديعًا توجد في مركزه النواة، وهي التي تحمل المادة

hiragate.com

المشعة أصل الطاقة فيّ، وحولها تدور الإلكترونات في اتجاه معاكس لدوران عقارب الساعة. هذا الدوران الذي هو سر فاعليتي، يتناسق اتجاهه التناسق التام مع الاتجاه العام الذي تدور به الأرض حول محورها والقمر حول الأرض والأرض بقمرها حول الشمس وكل الكواكب في مجراتها حول شموسها، بل ويذكّر بالاتجاه الذي يسلكه الطائفون حول الكعبة من حجيج بيت الله الحرام والذي أوحيَ به للطواف بالبيت العتيق منذ أن أقيم فوق هذه الأرض.

من الحجر نتعلم

أيها الإنسان في هذه الأسرار العجيبة التي أُخفيها في مكوناتي وهل جليَتْ إليك من إشاراتي ما يدلك على ذلك التناسق العجيب التي تُبديه الأشياء بين ظواهر كونية وإيحاءات ربانية؟

إن حديثي هذا إذا تأملتَه وجدتَه يُجلّي لك معاني كثيرة، لكنه يتمحور حول مغزى واحد يفيد بأن تسبيحي ليس شيئًا خارقًا للعادة وإنما هو شيء سارٍ في الكون، لكن الخارق للعادة هو أن تصل بحسك وعقلك أيها الإنسان إلى فهم هذه الإصدارات التي تقع على مستوى ذبذبات صوتية لا تستوعبها حواسك، ولهذا أطلبك أن ترقى إليَّ بذوق روحك لأنني بتجاوبي معك أسجل عليك بكل ذرة من ترابي آثار ما قدمت يداك وخطت رجلاك. ففي قول ربي سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾(يس:١٢) ورد في تفسير ابن كثير: "جاء عن الإمام أحمد أنه خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم "يا بني سلمة ديارَكم تُكتب آثارُكم ديارَكم تُكتب آثارُكم"[٤].

وتلك إشارة إلى أنني أحفظ في سجلاتي على بني آدم بكل ذرة من ذراتي آثار حركاتهم وسكناتهم. فلتنظر أيها الإنسان أين وضعتَ خطواتك وما قدمتَه لحياتك.

ولك كما تعلم في السيرة النبوية أن رسول الله ﷺ كان يقبّل الحجر الأسود كثيرًا، حيث جاء في كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي رحمه الله: "أن عمرًا ﷺ قبّل الحجر الأسود ثم قال: إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك ثم بكى حتى علا نشيجه فالتفت إلى وراءه فرأى عليًّا كرم الله وجهه فقال: يا أبا الحسن ها هنا تسكب العبرات وتستجاب الدعوات.

فقال علي ﷺ يا أمير المؤمنين بل هو يضر وينفع، قال وكيف ؟ قال: إن الله تعالى لما أخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتابًا ثم ألقمه هذا الحجر، فهو يشهد للمؤمن بالوفاء ويشهد على الكافر بالجحود"[٥].

وذلك هو المغزى من قول الناس عند استلام الحجر في الطواف: اللهم إيمانًا بك وتصديقًا بكتابك ووفاء بعهدك. فالذي أوجدني لك أيها الإنسان وسخرني لك لم يخلقني عبثًا بل كل ذرة من ذراتي وما تَشكّل منها من مكونات إلا ويتفاعل معك ويتجاوب مع وجودك بسر وحدة التسبيح التي أنطقُ بها أنا وتنطق بها أنت وكل الكائنات في هذا الكون، وبسر خاصية الشهادة التي كُلِّفتُ بها تُجاهك.

وهكذا فمِن خلال استقراءك لسر ما أخفيه في مكوناتي، ومن خلال إدراكك لمغزى فاعليتي، أدعوك لتفهم حقيقة وجودي. فاعلم رعاك الله أن حديثي هذا إنما جاء تثبيتًا لسر هذه الحقيقة في يقينك أنت أيها الإنسان صاحب الفكر والروية، لتعلم أنني مخلوق مثلُك، مسخّرٌ لك وشاهدٌ عليك.كما تحدثتُ إليك بدقائقِ ما لم تكن تعلمُه من مكامن الأسرار، فكذلك سأتحدّث عنك يومًا بأخبار ما سجّلتُه عليك من غابر الآثار. ■

---

[*] كلية العلوم، جامعة ابن طفيل / المغرب.

الهوامش

[١] شرح تائية البوزيدي في الخمرة الأزلية لأحمد بن عجيبة (ت ١٢٢٤ هـ)، دار الرشاد، الدار البيضاء ١٩٩٨.

[٢] كتاب الوصايا لابن عربي، ص ٢٢.

[٣] الوصايا لابن عربي الحاتمي (ت ٦٣٨ هـ)، دار الجيل، بيروت ١٩٨٨.

[٤] تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، دار الفكر، بيروت ص ٥٤٣.

[٥] إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)، دار المعرفة، بيروت، ص ٢٤٢، ج ١.

hiragate.com

خلف أحمد محمود أبو زيد*

آلة الزمن في جسم الإنسان

هل سألت نفسك يومًا لماذا أستيقظ من نومي في ساعة محددة في كل صباح؟ ولماذا أشعر بالنعاس في الوقت نفسه كل مساء؟ ولماذا أشعر بالجوع كلما حان وقت تناول الطعام؟ لقد لاحظ العلماء تكرار هذه الظواهر من تنبه ونعاس وجوع وغيرها من أمور تحدث داخل جسم الإنسان، وقد أرجعوا ذلك إلى ما أسموه "الساعة البيولوجية" وهي الآلية التي توقت الحوداث الحيوية، ومعظم نشاطات الكائن الحي الأخرى، فهي التي تجعلنا نشعر بالجوع عندما يحين موعد تناول الطعام، وتبرد أجسامنا ليلاً وتسخنها نهارًا.

أكثر من ساعة

والأمر العجيب أنه داخل جسم الإنسان، أكثر من ساعة دقاقة، بل وأكثر من بندول، بل هناك أكثر من ذراع من أذرع الساعة في الجسم مثلما تحمل الساعة أذرعًا للساعات والدقائق والثواني، ونلمس ذلك جيدًا في حركات تنظيم أجهزة الجسم على اختلافها والتي تعمل بإيقاع خاص وتسير وفق نظام هذه الساعة البيولوجية، فالقلب يدق بانتظام وتنشأ فيه موجة تنشيط كهربائية كل ثانية أو أقل من ذلك أو أكثر بقليل، لتحدث انقباضًا في الأذينين فينتقل الدم منهما إلى البطينين، ثم ينتشر التنشيط إلى البطينين فينقبضا ويدفعا الدم إلى جميع أنحاء الجسم.

وموجة التنشيط هذه موجة تلقائية تبدأ من جزء من أذين القلب الأيمن يعرف باسم منظم إيقاع القلب، التي تسبب انقباض القلب بصورة منتظمة متوافقة مع احتياجات الجسم، بالرغم من وجود أعصاب لا إرادية تغذي عضلة القلب، تستطيع أن تزيد أو تقلل من سرعة دقاته، فإنه قادر على العمل بصورة تلقائية، حتى ولو فصل تمامًا عن جميع الأعصاب المغذية له كما يحدث في جراحات نقل القلب.

وفي الجهاز الهضمي تنقبض العضلات اللاإرادية الموجودة في جدران المعدة والأمعاء بصورة تلقائية بإيقاع خاص يختلف حسب احتياج الجسم أثناء الهضم وامتصاص الطعام، كما يحدث التنفس بإيقاع رتيب يتناسب مع احتياج الجسم للأوكسجين ومعدلات ثاني أكسيد الكربون أثناء احتراق الغذاء في الأنسجة، وتزداد سرعة التنفس بصورة تلقائية كلما زادت الحاجة للأوكسجين وكلما تراكم ثاني أكسيد الكربون في الخلايا، وهكذا يعمل كل إيقاع من إيقاعات هذه الساعة تبعًا لطبيعة كل جسم وطبقًا لاحتياج كل عضو من أعضاء الجسم، ويشعر الجهاز العصبي في الإنسان بكل هذه الإيقاعات ويتأثر بها ويؤثر فيها متفاعلاً معها بصورة متناسقة.

موقع الساعة البيولوجية في الجسم

لقد ساعد التطور السريع، الذي يشهده علم الهندسة الوراثية في هذه الأيام في إيجاد حلول لبعض ألغاز الكائن الحي التي طالما أرقت العلماء، فلقد ظلت الساعة البيولوجية الموجودة داخل كل منا لغزًا غامضًا، رغم مئات الأبحاث التي نشرت حولها، حتى تمكن العلماء مؤخرًا من تحديد مكانها في الجسم، بعد اكتشاف مجموعة من الخلايا العصبية، تقع في النهار التحتي وسط المخ، تعرف بالنواة فوق التصالبية التي تبدو أنها مركز التحكم في تنظيم إيقاع الأنشطة الحيوية بالجسم على مدار اليوم.

وتتكون هذه النواة من جزأين، يوجد أحدهما في النصف الأيمن من المخ، والثاني في النصف الأيسر، وكل جزء يتكون من عشرة آلاف خلية عصبية ملتصقة بعضها ببعض، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالمناطق العليا من المخ الخاصة بالإحساس والحركة والذاكرة، والمراكز السفلى الخاصة بتنظيم الوظائف الحشوية اللاارادية مثل إيقاع القلب وضغط الدم والتنفس، كما تسيطر سيطرة تامة على الغدة النخامية المهيمنة على معظم الغدد الصماء في الجسم.

كما بينت هذه الأبحاث بوضوح علاقة تلك المنطقة بالنوم واليقظة والنشاط والخمول والانفعال والتبلد والرغبة في الطعام أو العزوف عنه والميل للجنس الآخر والزهد فيه، وأن هذه المنطقة تعمل بصورة دورية لتنشيط وظائف الجسم اللاإرادية المختلفة طبقًا لاحتياجات الجسم الداخلية في ضوء متغيرات الوسط الخارجي والبيئة المحيطة بالإنسان.

ويمكننا القول: إن هذه المنطقة هي منظم المنظمات في الجسم، وهي أشبه بغرفة تحكم رئيسية ترد إليها المعلومات عن طريق شبكة دقيقة تمدها ببينات كاملة

عما يحدث داخل الجسم وخارجه، وفي تلك الغرفة توجد أجهزة كمبيوتر وحاسوبات تعمل بتنظيم الجدوال وتستوعب البيانات، وتستفيد منها، طبقًا لبرامج موضوعة، ثم تقوم باتخاذ قرارات لا إرادية، أي ليس لسيطرة الإنسان فيها دخل كبير، ويتم تنفيذ تلك القرارات عن طريق تحكم تلك المنطقة في المراكزالعصبية الدنيا في المخ وفي أغلب غدد الجسم الصماء.

والأمر الذي يدعو للدهشة، أن معدلات الأداء في هذه المنطقة تتباين بين الأشخاص، كما تتباين بين الذكر والأنثى كل حسب طبيعته واستعداده، فبعض الناس يكون في أحسن حالاته وقمة نشاطه مع بزوغ الفجر، والبعض الآخر يتأخر ذلك عنده إلى وقت القيلولة، أو بعد الظهر وهكذا.

كيف تعمل الساعة البيولوجية

لقد توصلت الأبحاث العلمية، حول كيفية عمل هذه الساعة البيولوجية داخل الجسم، وبعد أبحاث توصلوا إلى وجود أسباب جيوفيزيائية، كالضغط الجوي والجاذبية الأرضية والإشعاعات وتغيرات الحرارة، إذ لوحظ وجود عامل مشترك، يجمع بين هذه الحوداث كافة، ألا وهو الضوء.

والواقع أن أول من قام بالدراسة العلمية حول هذا الموضوع باحثة تدعى هاركر وذلك في عام ١٩٦٠، إذ وجدت أن العين البسيطة عند الصرصور تلعب دورًا مهمًّا في دورية الحوداث، ثم تبين فيما بعد أن العين البسيطة هي مفتاح الدورية، وهذا ما أوحي بأن الضوء هو العامل الأساس في قضية الساعة البيولوجية، إلا أن الدراسات التالية قد بينت أن العامل المنبه ليس الضوء بحد ذاته، وإنما ما يسمى "الفترة الضوئية " أي فترة التعرض للضوء بالنسبة لفترة التعرض للظلام من كل ٢٤ ساعة يومية، وأن ما يطلق عليه الغدة الصنوبرية، هي التي تتأثر بالفترة الضوئية، فتعمل على خلق التزامن بين الساعة الداخلية ودورات النور وتنظم إعادة ضبط الساعة البيولوجية، كل ذلك في دورة منتظمة انتظام عقارب الساعة، تلك هي آلة الزمن في جسم الإنسان، التي تتوافق مع تعاقب الليل والنهار على سطح

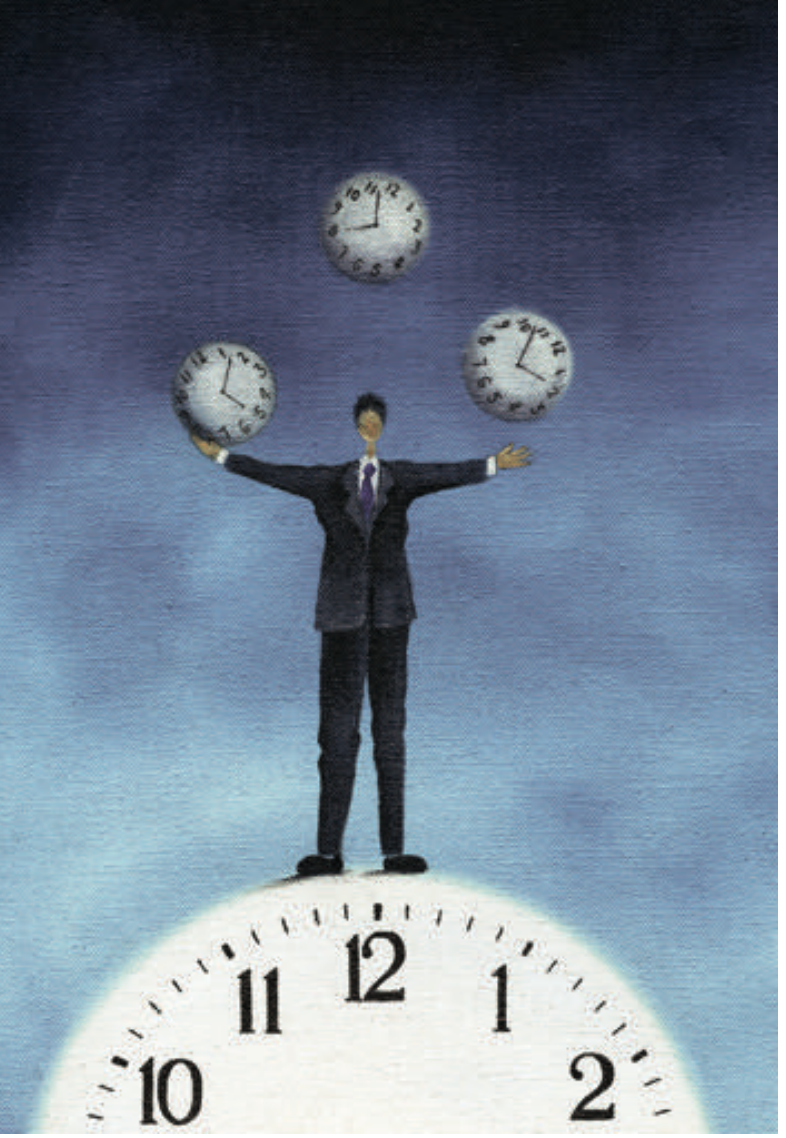

الأرض، وصدق الخالق ﷻ إذ يقول في محكم كتابه الكريم؛ ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(فصلت:٥٣). ■

(*) كاتب وباحث / مصر.

المراجع

(١) الساعة البيولوجية ساعة لكل زمان، د. حسن حلمي خاروف، مجلة العربي الكويتية، العدد ٣٧٧.

(٢) الساعة البيولوجية، د. محمد بهائي السكري، مجلة الهلال المصرية، عدد أبريل عام ١٩٩٢م.

(٣) إيقاع الساعة البيولوجية، ميشيل دايليوبانخ، الهيئة العلمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مكة المكرمة، العدد السادس.

(٤) الموسوعة العلمية نسخة إلكترونية.

علوم

أ.د. ناصر أحمد سنه*

عجائب أمة الطير

تبدأ صفحة الطيور في تاريخ البشرية عندما خلقها الله تعالى، هي والأنعام، أمة كأمم البشر. خُلقت في توازن، وانسجام، ونظام دقيق: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(الأنعام:٣٨).

وتأتي عملية طيران الطيور من أعجب الظواهر الحيوية والفيزيائية. يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(النحل:٧٩). فهذه العملية كانت، وستظل مثار تأمل وإعجاب واستغراب، و"حسد" من الإنسان.

فهي بأجنحتها تمتلك أجواء الفضاء مرتفعة بحرية، إلى عنان السماء، مُشرفة على الأرض تعود إليها، مُختارة، متى تشاء. تتخذ العالم كله "موطنًا" دون قيد أو شرط أو عناء. هذا، وغيره، جعلها "أسطورة" الحياة النشطة المفعمة بالحرية، والإنطلاق، والتفرد، والعلو.

كيف تطير الطيور

عملية الطيران تتم على مراحل ثلاث. الأولى، تُعرف بـ"الانزلاق" حيث يبسط الطير فيها أجنحته دون تحريكهما. والثانية "الدفيف" عندما يضرب فيها بجناحيه، رفعًا وخفضًا، ضربات متتالية. أما الثالثة "طيران الصف" ويأتيه الطائر بجناحين منبسطين لا يحركهما. وهي درجة من التحليق لا يستطيعها إلا بعض الطيور كالعقاب، والنسر، والنورس، والحدأة المصرية، وما شاكلها. يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(النور:٤١). ويقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾(الملك:١٩).

يقول القرطبي: "اعتدال جسم الطائر بين الجناحين يعينه على الطيران ولو كان غير معتدل لكان يميل، فأعلمنا أن الطيران بالجناحين وما يمسكهن إلا الله. ومسخرات أي مذللات لمنافعكم من قبل الله تعالى. وهو الذي يحفظها في حال القبض والبسط والإصطفاف ليبين لكم كيف تعتبرون بها على وحدانيته وفي ذلك لآيات وعبر ودلالات لقوم يؤمنون بالله تعالى وبما جاء به رسله المصطفين".

وتخضع الطيور في قوة طيرانها، أو ضعفه، لشكل جناحيها ومساحته، وشدة عضلاتها الصدرية، وتناسب ثقل الجسم. على أن للذيل مهمة كبرى في تغيير الاتجاه حسب رغبة الطائر، ووجهته. كما يعين الطير على هذه العملية "الشاقة" عظام خفيفة جوفاء، بالغة القوة والمرونة، واتساع محيط التنفس، الذي يتيحه لها صدرها بتركيبه العضوي العجيب، وتكوين رئتيها الإسفنجية التركيب، وشعبها الهوائية المتعددة، وأكياسها الهوائية المتصلة بها لتساعد كلها، وغيرها، على حسن كفاءة تبادل الغازات فضلاً عن مساهمتها في خفة وزن الطائر: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(الأنعام:٩٦)، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾(الفرقان:٢).

يوم عالمي للطيور المهاجرة

تهاجر الطيور لمسافات هائلة ثم تعود أدراجها بعد بضعة أشهر قاطعة مسافات طويلة (تمتد لآلاف الكيلومترات) مقتفية أثر أجدادها في رحلة شاقة وخطيرة. وتوجد اختلافات عديدة، عامة وخاصة، في عادات الهجرة، وأنماطها، وطرقها، ومساراتها، وطريقة طيرانها، وإستراتيجية هجرتها. فترحل الطيور الصغيرة التي يقل وزنها عن ١٥ غرامًا، من جنوب أوروبا إلى الصحراء الكبرى وصولاً إلى خط الساحل الإفريقي والسودان في رحلة تزيد على ألفي كيلومتر، تقطعها في يومين، دون أكل أو شرب، وتُحلّق فيها على ارتفاعات شاهقة. أما الطيور الكبيرة، مثل الحدأة، واللقلق الأبيض، فمساراتها أكثر تحديدًا وظروفها أصعب. فهي أثقل وزنًا، وأكثر بطأً، وتطير على علو منخفض. ولا تحلّق فوق البحر. وتتحرك من أوروبا في مجموعات كبيرة إلى مناطق "عنق الزجاجة" أو إلى المضائق البحرية (كجبل طارق، و"باب المندب"، و"البوسفور" إلخ)، لتستطيع عبورها جنوبًا.

وتم تقسيم العالم لثلاثة أنظمة هجرة رئيسة منفصلة بحدود جغرافية. فالأول طريق الهجرة في العالم الجديد. أما الأخرى فهي الأوراسي والأفريقي، والنظام الآسيوي الشرقي والآسيوي الجنوبي والأسترالي. وتشكل العديد من المناطق والبحيرات والمحميات الطبيعية في دولنا العربية معبرًا آمنًا للطيور المهاجرة (والمتوطنة كذلك). كما أنها تمتلك مواقع عدة تمكنها من الاستراحة فيها خلال هجرتها. الطيور المهاجرة تمثل "شاهد عيان" على أحوال استخدام الأراضي، واستثمار الموارد الطبيعية. ولها منافعها وأثرها في تلقيح النباتات، ونثر البذور، وحفظ التوازن الأيكولوجي وخدمة الإنسان، وبيئته.

آليات الهجرة

الهجرة أمر فطري عند الطير، وبالرغم من تأثرها بالظروف الخارجية، إلا أن الطيور تملك آليات داخلية، ونشاطًا هرمونيًا تنبهها قبل أشهر من وقت الهجرة. فقبل موسم البرد، وشح الغذاء، ولأجل التكاثر ووضع الأعشاش تهاجر الطيور لبيئات أفضل، وتبقى فيها حتى يعود النهار ليصبح أطول، ويتوافر الغذاء بشكل أكبر. ويصبح الطقس مقبولاً في موطنها فتعود له، لتهاجر ثانية في العام التالي. وثمة تحضيرات قبل الهجرة كدعم مخزون دهون الجسم لتأمين الطاقة الكافية. كما أن العديد من آكلي الحشرات يتحولون إلى أكل التوت الغني بالسكر لدعم هذا المخزون. وتحتاج طيور اللقلاق، والكركي إلى تيارات الهواء الدافئ لطيرانها.

المتأمل في الكون.. "كتاب الله تعالى المنظور" يجد كمًّا هائلاً من الكائنات الحية، والمشاهد والمظاهر تدل -ليس فقط-على نعمة الإيجاد من عدم "الخلق" لما يزيد عن "مليون" نوع من الكائنات الحية، وأيضًا، على "هداية"، و"إرشاد"، و"تسخير"، و"رزق"، و"تعليم" الله تعالى لها كي تؤدي دورها ووظيفتها، وتنال رزقها، وتتواصل فيما بينها على الوجه الأنسب والأفضل.

hiragate.com

وأوضحت دراسة أمريكية نشرت في مجلة "بروسيدينجس بي" للجمعية الملكية البريطانية، أن طائر الليموزية صاحب المنقار الطويل (شبيه بالكروان) حطم رقمًا قياسيًا في الطيران. فقطع هذا "الرفراف الجميل" مسافة ١١٧٠٠ كلم فوق المحيط الهادي (من ألاسكا لنيوزيلندا) في تسعة أيام بلا توقف أو استراحة أو طعام. وكان الكروان الأوربي (يعيش على الحدود بين أوروبا وآسيا) صاحب رقم قياسي سابق للطيران بلا توقف، فقطع مسافة ٦٥٠٠ كلم تقريبًا في ثلاثة - خمسة أيام بين أستراليا والصين. ويهاجر "خطاف البحر القطبي" (السنونو) نهاية الصيف إلى القطب الجنوبي قاطعًا مسافة تقدر بـ ١٨,٠٠٠ كلم. وهو يمر عبر دول إيران وسوريا وليبيا وجنوب أوروبا والبحر الأبيض المتوسط على شكل أسراب مكونة من ٦٠-٨٠ طيرًا ويذهب إلى أوروبا ليفرخ هناك. كما ينتقل من جنوب إفريقيا، والقطب الجنوبي.

وتتأثر الهجرة بعوامل وراثية، فالطائر الشادي يطير من أوروبا الشمالية لوسط أفريقيا، وهو يستهلك كميات كبيرة من الطاقة. وتستغرق رحلته حوالي أربعة أيام وليالي من الطيران المستمر. لكن كثيرًا من الطير ترتاح أثناء الطريق فتطير مساء، وتتوقف نهارًا. فالتغذية أسهل نهارًا. لكن بعض الطيور الصغيرة المهاجرة نهارًا كالسنونو والعندليب تستطيع الأكل أثناء طيرانها فاتحة أفواهها لتلتهم الحشرات التي تحملها تيارات الهواء. ولذا فالفصائل المهاجرة لمسافات قصيرة نسبيًا، تكون أقل إرهاقًا في مشاكل التغذية، وعادة ما تهاجر نهارًا. أما طيور الشواطئ، فتنجز هجرتها في أي وقت من النهار أو الليل.

كيف تعرف الطيور المهاجرة مسارها؟

تشير الأبحاث إلى أنها قد تملك خضابًا وخلايا خاصة في أنظمتها البصرية تسمح بإدراك الحقول المغناطيسية للأرض على شكل أنماط خطية براقة أو مظللة. وعندما تمتص العين الضوء تصبح الخضاب ضعيفة مغناطيسيًا فتسبب تبدلاً في الإشارات العصبية التي ترسلها العين للدماغ. وتقول النظريات أن بعض خلايا الدماغ تحتوي على بلوريات مادة ماغنتايت (Magnetite) (أوكسيد حديدي قادر على التقاط الحقول المغناطيسية). فهل تستعمل الطيور المهاجرة إحساسها المغناطيسي البصري لالتقاط اتجاهات البوصلة؟ وتستعمل مادة الماغنتايت أيضًا لالتقاط التبدلات المحلية أو العالمية في الحقول المغناطيسية؟ وهل هذا النظام الملاحي المزدوج يفسر لماذا تتمكن بعض الطيور من الملاحة في الليالي المظلمة، والغائمة؟ وهل هذا الخضاب الحساس للضوء يعمل أيضًا في ظروف الإضاءة الضعيفة؟ أسئلة عديدة، وبعض إجابات، ويبقي روعة التأمل والبحث للحصول على المزيد من الإجابات.

هناك ما يقرب من ١٠,٠٠٠ نوع من الطيور تتباين في طرق معيشتها وأشكالها وأحجامها بداية من النعامة والتي يصل وزنها إلى ١٥٠ كلغ وصولاً إلى الطائر الطنان (humming bird) ٢,٢ غرام الذي يستهلك في طيرانه طاقة كبيرة، لو أراد الإنسان أن يقوم بعمله لاحتاج إلى ١٣ كلغ من اللحوم يوميًا، وإفراز ٤٥ لتر من الماء/ ساعة، ليحتفظ بحرارة جسمه تحت ١٠٠ درجة مئوية. كما تجدر الإشارة أن للطيور عمومًا، والمهاجرة خصوصًا، أهمية كبرى في منظومة التنوع البيولوجي لكوكبنا ولحياتنا. منظومة تؤثر فينا، ونؤثر فيها.. إيجابًا أو سلبًا.

الطير.. دروس، وعبر

هناك قصة الغراب الذي علم "قابيل" كيفية دفن أخيه المقتول "هابيل": ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۞ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾(المائدة:٣٠-٣١). ومن ثم تعلمت البشرية مواراة جثث الموتى. إذ لو اجتمعت تلك الجثث على سطح البسيطة -دون موارتها- لأفسدت على الناس حياتهم ومعيشتهم.

وفي سورة البقرة جاء ذكر الطير دليلاً على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ

hiragate.com

لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(البقرة:٢٦٠). وفي سورة "آل عمران" ضربت دليلاً على قدرته تعالى في الخلق أيضًا: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران:٤٩). وفي اختياره ﷻ الطير ليكشف به عن عظيم قدرته في خلق الكون والناس وإعادة بعثه يؤكد العلاقة الخاصة التي قامت بين البشر والطير.

ومن عجائب الطير في القرآن الكريم أنها كانت تسبح مع داود عليه السلام، وكان عليه السلام يعرف منطقها وترجيعها: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾(الأنبياء:٧٩). وكان للطير دور بارز وأكثر خصوصية مع ابنه سليمان عليه السلام، الذي ورث العلم والحكمة وعرف منطق الطير: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ۞ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾(النمل:١٦-١٧). يقول القرطبي: الطير اسم جامع والواحد طائر والمراد جنس الطير وجماعتها، وكانت تصحب سليمان عليه السلام في سفره فتظلله بأجنحتها.

وفي تفقد نبي الله سليمان عليه السلام، الطيرَ ضربٌ لمثل في السياسة الرشيدة للحكم، ووجوب استمرار تفقد الراعي أحوال رعيته: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۞ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾(النمل:٢٠-٢١). لكن الهدهد علمنا كيف نبادر إلى "إصلاح العقائد" كلما فسدت وحادت عن الحق، والطريق القويم. ولا نقف موقف المتفرجين: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۞ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ۞ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۞ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾(النمل:٢٣-٢٦).

وفي تاريخ الإسلام تبرز قصة الطير وهي تعشش على غار "ثور" على طريق الهجرة. فكانت من جنود الله المسخرة لحماية بابه، وساهمت في دفع الأذى عن الرسول ﷺ وصاحبه فترة بقائهما في الغار.

كما تروي كتب السيرة أنموذجًا من رفقه ورحمته ﷺ، بالكائنات جميعها ومنها الطير. فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حُمرة (طائر كالعصفور) معها فرخان فأخذنا فرخيها فجاءت الحمرةُ تعرش (تظلل بجناحيها على من تحتها) فجاء النبي ﷺ فقال: "من فجع هذه بولدها؟ رُدوا ولدها إليها". وسار على ذات النهج -قدوة واقتداء- الصحب الكرام رضي الله عنهم.

فهذا الفاتح عمرو بن العاص رضي الله عنه لما باضت يمامة فوق فسطاطه (خيمته). ولما أراد الرحيل إلى الإسكندرية، فأخبروه بأمرها. فقال: "قد تحرمت في جوارنا، أَقِروا الفسطاط حتى تطير فراخها" فأقروه. فكان من أثر ذلك، وبعد عودتهم من سفرهم، أن تكاثر العمران من حوله، فكانت مدينة "الفسطاط".

المتأمل في الكون؛ "كتاب الله تعالى المنظور" يجد كمًّا هائلاً من الكائنات الحية، والمشاهد والمظاهر تدل -ليس فقط- على نعمة الإيجاد من عدم "الخلق" لما يزيد عن "مليون" نوع من الكائنات الحية، ومنها الطير، متنوعة الصفات والخصائص والوظائف والتراكيب والأشكال والألوان إلخ. بل، أيضًا، على "هداية"، و"إرشاد"، و"تسخير"، و"رزق"، و"تعليم" الله تعالى لها كي تؤدي دورها ووظيفتها، وتنال رزقها، وتتواصل فيما بينها على الوجه الأنسب والأفضل دومًا: ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾(النمل:٨٨). وإننا -بتأملنا هذا- لا بد أن نجد لكل أمر غاية، ولكل شيء أجلاً، ولكل حادث موعدًا، ولكل قدر حكمة: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(القمر:٤٩). ■

(*) كاتب وأكاديمي / مصر.

hiragate.com

د. ليلى محمد السبيعي*

الضرير

رفعت سماعة الهاتف، فأتاني صوته دافئًا حنونًا كما عهدته دومًا يقول:
أنا في الطريق يا زوجتي الحبيبة، استعدي عندما أصل سآخذك معي.
قلت: إلى أين؟
أجابني: إلى خطوات فيها خير. لقد توفيت السيدة التي كانت تنظف المكتب دائمًا، وواجب أن نذهب للعزاء.
حسنًا، ستجدني أنتظرك.
أقفلت سماعة الهاتف ورددت بيني وبين نفسي "الحمد لله"، فقد وهبني الله زوجًا لم أر لحنانه مثيلاً، يحب الخير ويسعى إليه، وتشجعت أن أرافقه رغم أني لم أعرف عن هذه السيدة غير قليل حكاه عنها أنها، أرملة فقيرة جدًّا وتنظف مكتبه وتعول ابنها الصغير مما تكسبه من جهدها.

ذهبنا للعزاء، وكم كانت دهشتي لما علمت أن هذه السيدة المسكينة كانت تكتري غرفة واحدة ضيقة جدًّا تعيش فيها هي وابنها، لكن الذي لن أنساه أبدًا هو عندما رأيت هذا الابن لأول مرة، شعرت بصدمة كبيرة حين علمت أنه أعمى.. بكيت كثيرًا ولم أستطع مقاومة شعور الحنان المتدفق في صدري فقمت وضممته إلي. كان طفلاً في الخامسة من عمره، ضعيف البنية لا يرى شيئًا. سألت النساء حولي أين يذهب هذا الطفل بعد وفاة أمه؟ قالوا لي إنهما من سنين طويلة لم يزرهما أحد وربما أمه مقطوعة من شجرة. هببت واقفة وناديت زوجي في الهاتف، قلت له:

أريدك حالاً، أرجوك الأمر لا يحتمل.

نعم لكني في مجلس العزاء.

اخرج نلتقي في السيارة ثم عد. أجابني:

حسنًا.

ولما جلسنا في السيارة حكيت له ما كان من أمر الطفل الضرير، كنت أعرف أن لزوجي قلبًا عطوفًا لذلك تشجعت وقلت له:

لنتكفل به يا زوجي الحبيب. لبث برهة ثم قال:

لكن ربما له أقارب أو جيران وقد تكفلوا به. قلت:

لقد درست الأمر جيدًا، وعلمت ألا أقارب له وأن جيرانه هم أنفسهم فقراء وقد رأيت في وجوههم أنهم يتهربون منه، ونحن يا زوجي قد أنعم الله علينا فلنعمل هذا الخير في هذا الولد في سبيل الله.

تطلع إلى وجهي وقال في حنان:

لشد ما أنا سعيد بك يا زوجتي الحبيبة، حسنًا، سأبدأ بإذن الله إجراءات التكفل به، يجب أن يكون كل شيء قانونيًا. هتفت في سعادة:

حفظك الله لي يا أغلى ما لدي.

أخذنا الولد إلى بيتنا، وكنت كلما مررت كفي على رأسه اغرورقت عيناي، وتذكرت قول النبي ﷺ "امسح رأس اليتيم" فكيف به وهو يتيم وأعمى.

شعرت بحب جارف يشدني لهذا الطفل، وأحببت بعمق أن أكتشف فيه مواهبه وأجعل منه رجلاً عظيمًا رغم إعاقته. وكان أول ما اكتشفت فيه قدرته الهائلة على الحفظ والتذكر، وكأنه بذلك يغطي فقده لبصره، وسجلته في دورة لتحفيظ القرآن الكريم وأوصى زوجي به كثيرًا.

كان تفوقه يظهر يومًا بعد يوم، وكلما حفظ سورة أتى ليكررها عليَّ حتى أتم المصحف بكامله حفظًا وترتيلاً. ذات مساء أتاني فرحًا وقال:

لقد قال لي المعلم إنه رشحني لجائزة عالمية في حفظ القرآن الكريم يتبارى فيها أطفال من كل أنحاء العالم. قلت له:

هل أنت مستعد يا ولدي لها؟ أجابني بثقة وإشراق لم أر لهما مثيلاً:

نعم، كل الاستعداد. ضممته إليَّ، أعطيته من الحنان كما لو كان ابني حقًّا وقلت له:

منذ اليوم سأراجع معك سور القرآن الكريم سورة سورة، وسنكرر ذلك إلى حين موعد المسابقة.

وذلك ما كنا نفعله حقًّا. كنت أتصور أحيانًا أن هذا الطفل يرى بنور الله، كيف لا وهو يحمل كتاب الله في صدره ولم يتجاوز السابعة بعد من عمره.

حان موعد المسابقة، تمنيت بعمق أن يفوز أو حتى أن يكون ضمن لائحة الفائزين، لأني رأيته قد وضع كل آماله فيها. وفي يوم المسابقة، ألبسته أحسن الثياب وعطرته ثم أخذناه، وجاء دوره ليتلو القرآن، فوجدتني أردد والدموع تملأ عيني: "اللهم لا تكسر قلب ابني هذا".

كانت المنافسة شديدة وأطفال بارعون من دول شتى يرتلون بأصواتهم الشجية تتابعهم كامرات القنوات الفضائية وشخصيات مرموقة حضرت هذا الحفل. وبعد ساعات من التباري، حانت لحظة الحسم والنطق باسم الفائزين، تشبثت بيد زوجي وقلبي يلهج بالدعاء.. وأتانا قرار لجنة التحكيم بأن الفائز الأول هو ابني.. سالت دموعي أنهارًا وأنا أهتف: الحمد لله الحمد لله. نظرت إلى زوجي في فرح، وجدته هو الآخر يغرق في بحر من الدموع. ■

(*) كاتبة وأديبة / المغرب.

hiragate.com

حراء

مجلة علمية ثقافية أدبية

www.hiragate.com

Wissenschaft, Kultur und Literatur Zeitschrift

مجلة علمية ثقافية أدبية
تصدر كل شهرين عن دار النيل للطباعة والنشر والتوزيع

Hira ist eine, durch die Daralnile Druck und Vertag zweimonatlich herausgegebene, Wissenschaft, Kultur und Literatur Zeitschrift

رئيس التحرير
هانئ رسلان

Haupteditor
Hani Raslan

مدير التحرير
إسماعيل قايار

Redaktionsleiter
İsmail Kayar

المخرج الفني
قسم التصميم بدار النيل

Grafik-Design
Daralnile Grafik-Team

منسق الاشتراكات
علاء الكوابري

Abonnenten Koordinator
Ala Alkavabiri
+201000780841
+201023201002

نوع النشر
مجلة دورية تصدر كل شهرين

Ausgabeart
zweimonatlich

الطباعة
دار الجمهورية للصحافة

Druck
Cumhuriyet gazetecilik Verlagshaus

رقم الإيداع
٢٤٢٦١

Ziffer IDA
24261

ISSN 2357-0229

المنحى العام

- حراء مجلة علمية ثقافية أدبية تعنى بقراءة الكون والإنسان والحياة من منظور قرآني حضاري إنساني.
- تهدف إلى بناء الإنسان المتوازن علميًّا وفكريًّا وسلوكيًّا.
- تسعى إلى أن تكون إضافة نوعية مفيدة في الساحة الثقافية شكلاً ومضمونًا.
- مجلة حراء ملتقى للفكر الإيجابي الحضاري البنّاء.
- تنطلق من رؤية حضارية تستمد طاقتها من ثراء الخبرة التاريخية للأمة الإسلامية والأسرة الإنسانية لمعالجة قضايا الواقع واستشراف آفاق المستقبل.
- تسعى إلى معالجة المعارف الإنسانية من منظور تآلفي بين العقل والقلب، والعلم والإيمان، والفرد والمجتمع، والروح والمادة، والنظري والتطبيقي، والمحلي والعالمي، والأصالة والمعاصرة.
- تحرص على الصحة في المعلومة، والإيجابية في الطرح، والعمق في التحليل، والإثارة في الكتابة، والحرية في التعبير مع احترام المقدسات والخصوصيات، والالتزام بالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية المشتركة، والإنصات إلى الآخر، والانفتاح على الحكمة الإنسانية حيثما كانت، والحوار البنّاء الذي يخدم الإنسان ويفيده؛ كما تحرص على الابتعاد عن الإقصاء والاستفزاز والإساءة والعنف والتطرف والسطحية والسلبية فيما تنشر.
- تهدف إلى الجمع بين عمق الفكرة، وجمالية الصياغة، وبساطة العبارة، ووضوح المعنى في أسلوب الكتابة.

معايير النشر

- أن تكون المادة المرسلة جديدة لم يسبق نشرها.
- ألا تتجاوز عدد الكلمات ٢٠٠٠ كلمة. وهيئة التحرير لها الحق في التصرف تلخيصًا واختصارًا.
- المادة المرسلة تخضع لتحكيم لجنة علمية استشارية، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء تعديلات على المادة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة تحتفظ بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وطبقًا للتوقيت الذي تراه مناسبًا.
- للمجلة الحق في أن تكتفي بنشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون استئذان كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال رغبته في النشر في المجلة الورقية حصريًّا. علمًا بأن ما ينشر إلكترونيًّا لا يترتب عليه أي مكافأة مالية.
- المجلة تلتزم بإبلاغ الكتاب بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- للمجلة حق إعادة نشر المادة منفصلة أو ضمن مجموعة من المقالات بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى لغة أخرى دون استئذان صاحب المادة.
- المقالات المنشورة في مجلة حراء تعبر عن آراء كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- مجلة حراء ترجو كتابها الأكارم أن يرسلوا مع المادة نبذة مختصرة عن سيرتهم الذاتية مع صورة واضحة لهم.

ترسل جميع المشاركات إلى البريد الآتي: hiragate@yahoo.com

EGYPT
٣٧ شارع د. عبد الشافي محمد – الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة.
هاتف: +201091242075 - +201119482609
hiraegypt@gmail.com

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع: المكتب الرئيسي: ١٨٢ حي الازدهار، طريق عثمان بن عفان، الطابق الثاني، المكتب رقم ٦، ص.ب: 68761 الرياض: 12537
Phone: +966 11 4871414
الجوال: +966507570864
Fax: +966 11 4943213

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution, d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

LİBYA
دار الرواد، ذات العماد، برج ٤–طرابلس–ليبيا.
هاتف: ٠٠٢١٨٢١٣٣٥٠٣٣٢ - daralrowdooks@gmail.com
هاتف: ٠٠٢١٨٩١٦١٢٥٥٧٩ - hiralibya@gmail.com

MAURITANIA
Phone: +2223014264

YEMEN
مكتب حراء للنشر والتوزيع
شارع بغداد، مقابل بريد بغداد، صنعاء – اليمن
Phone: +967 1 214774
Fax: +967 1 204494
GSM: +967 736027560

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 22

SUDAN
مركز دار النيل، مكتب الخرطوم
أركويت مربع 48 منزل رقم 31 – الخرطوم – السودان
Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24
hirasudan@hotmail.com

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

KUWAIT
القبلة، القطعة 51، المبنى 31
مجمع: الهيئة العامة لشؤون القصر، الدور 4.
هاتف: ٠٠٩٦٥٩٨٨٩٧٢٧١

NIGERIA
.Nusret Educational And Cultural Co. Ltd
Aguiyi Ironsi St. No: 77/B Maitama - Abuja
Phone: +2349030222525
nusretnigeria@gmail.com

USA
Tughra Books
Clifton Ave., Clifton, NJ, 07011, USA 345
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

EUROPE
World Media Group AG
Sprendlinger Landstrabe 107-109
63069 Offenbach a. Main / Germany
Phone: 069 / 300 34 130
Fax: 069 / 300 34 105
dergiler@wmgag.eu

المحن والابتلاءات قدر السائرين في طريق الحق، والراشد من تجهز لها، وبصر بمواقع أقدامه في هذا الطريق، ولم تثنه عقباته عن مواصلة المسير، لكن كيف؟ وبأي وسيلة؟ هذا ما يحدثنا عنه الأستاذ فتح الله كولن في هذا الكتاب.

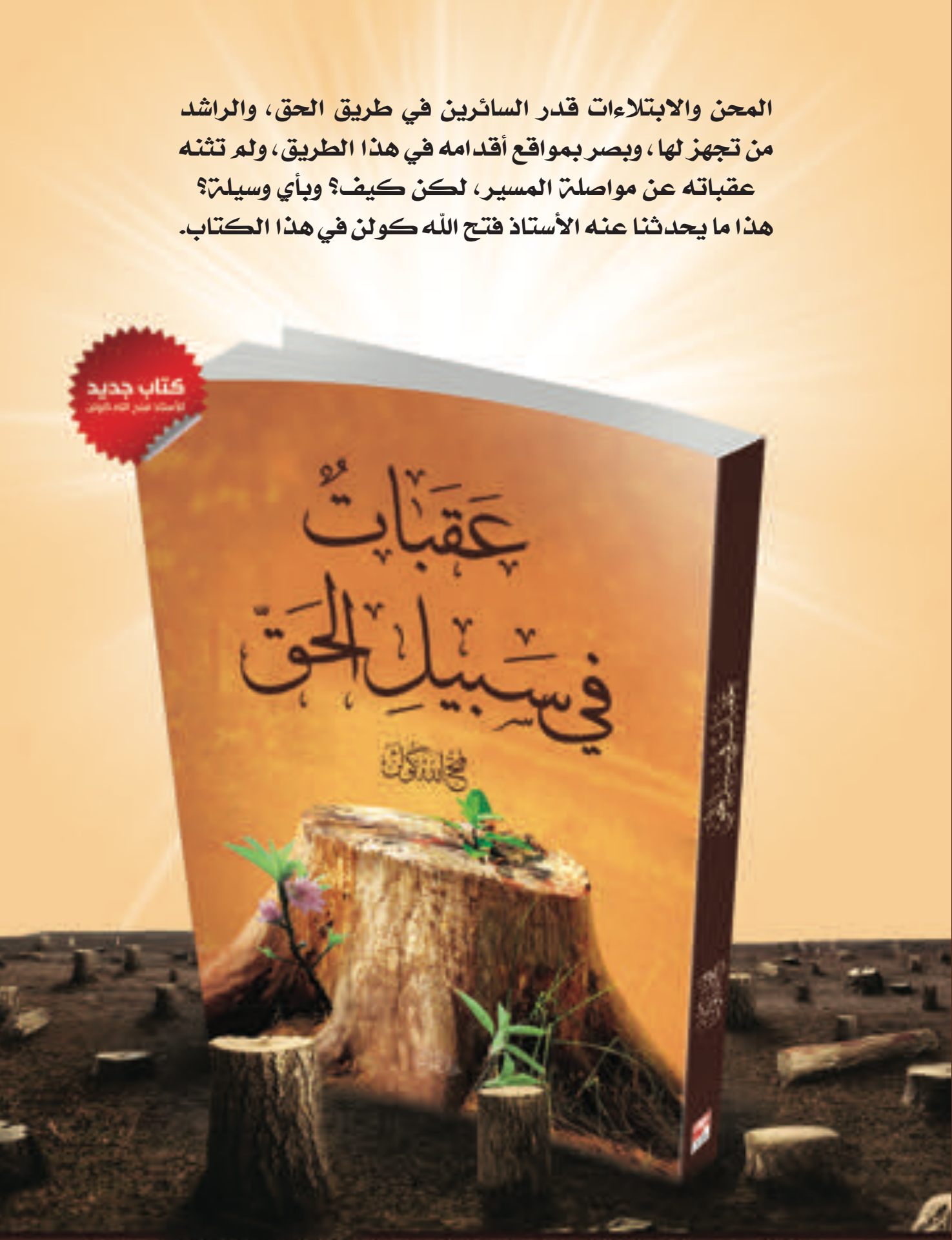

22 حـ – جنوب الأكاديمية – شارع التسعين الشمالي – التجمع الخامس – القاهرة الجديدة – مصر
تليفون وفاكس: 391 379 25 02 2+ الهاتف الجوال: 01000780841 2+
info@darainile.com www.darainile.com

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

قلم وقلم

هناك قلم، يُردّد "هُوْ" سبحانه،

في كل سطر يكشف من أسراره سبحانه،

وهناك قلم، يَمُجّ كل آن قطرانًا،

ينفث على الأسطر سُمًّا وأدرانًا...

* * *

ISSN 2357-0229
56
www.hiragate.com

المملكة العربية السعودية: ١٢ ريالا سعوديا • اليمن: ٣٧٥ ريالا يمنيا • المغرب: ٢٠ درهما • الجزائر: ٢٥٠ دينارا
Europe: 5.30 € • USA: 5 $